سينا للنشر ٣

الخلافة الإسلامية

المستشار محمد سعيد العشماوي

السلام عطا حليم

الخلافة الإسلامية

بحث يبتدأ في أصول، وتاريخ، وفقه الخلافة الإسلامية.

يعرض الأصول العامة لهذه الخلافة من واقع حقيقتها، ثم يبين التاريخ السابق على إنشاء الخلافة، والمؤثر في الخلافة ذاتها، ثم يقدم تاريخ الخلافة منذ نشأتها حتى إلغائها؛ فترة بعد فترة، ومرحلة إثر مرحلة، وينتهي إلى فقه الخلافة ليجادل في أمر للخلافة فقه، ثم يفند الفقه الذي طرحه البعض، والفقه الذي يطرحه الإسلام السياسي المعتقد له وخلوط العمله.

٣ سينا للنشر

الخلافة الإسلامية

المستشار محمد سعيد العشماوي

الطبعة الثانية: ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: سينا للنشر
المدير المسؤول: راوية عبد العظيم

١٨ شارع ضريح سعد - القصر العيني - القاهرة
جمهورية مصر العربية - تليفون: ٣٥٤٧١٧٨/٠٢٠٢

الغلاف: عماد حليم

الاخراج الداخلي: إيناس حسني

الصف: سينا للنشر

بيان موضوعات الكتاب

تقديم الطبعة الثانية ٥

١- المقدمة ١١

٢- الأصول العامة للخلافة الإسلامية ١٥

٣- تاريخ الخلافة الإسلامية ٣٣

أ - شبه جزيرة العرب فى العصر الجاهلى ٣٥

ب - عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ٦٧

جـ - الخلافة الراشدة ٩٥

د - الخلافة الأموية ١٢٧

هـ - الخلافة العباسية ١٥٧

و - الدولة الفاطمية ١٩٥

ز - السلطنة العثمانية ٢١٥

٤- فقه الخلافة ٢٢٩

أ - هل يوجد للخلافة فقه؟ ٢٣١

ب - فقه الخلافة ٢٣٦

ثبت الخلفـــاء

	سنة هجرية	سنة ميلادية
١ – معاوية الأول ابن أبى سفيان	٤١	٦٦١
٢ – يزيد الأول ابن معاوية	٦٠	٦٨٠
٣ – معاوية الثانى ابن يزيد	٦٤	٦٨٣
٤ – مروان الأول ابن الحكم.	٦٤	٦٨٣
٥ – عبد الملك بن مروان	٦٥	٦٨٥
٦ – الوليد الأول ابن عبد الملك	٨٦	٧٠٥
٧ – سليمان بن عبد الملك	٩٦	٧١٥
٨ – عمر بن عبد العزيز	٩٩	٧١٧
٩ – يزيد الثانى ابن عبد الملك	١٠١	٧٢٠
١٠ – هشام بن عبد الملك	١٠٥	٧٢٤
١١ – الوليد الثانى ابن يزيد	١٢٥	٧٤٣
١٢ – يزيد الثالث ابن الوليد	١٢٦	٧٤٤
١٣ – ابراهيم بن الوليد	١٢٦	٧٤٤
١٤ – مروان الثانى ابن محمد	١٢٧	٧٤٥

كانت قبيلة قريش تسيطر على مكة، وغالبية سكانها منها، منذ عهد قصى بن كلاب الذى جمّعهم فيها (حوالى سنة ٤٠٠م) ثم بسط نفوذهم على الكعبة حتى أصبح رجالها يُسمّون رجال الله، وجيران بيت الله، وصفوة الخلق؛ الأمر الذى جعل لقريش نفوذا حقيقيا بين العرب ومركزا ممتازا فيهم.

وكانت قريش تضم اثنا عشر فرعا (أو حيا)، أكبرها فرعا بنى هاشم وبنى أمية . وكان بنو هاشم برياسة عبد المطلب جد النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم آلت الرياسة بعد وفاته إلى أبى طالب عم النبى (ووالد على)، وكان بنو أمية (عبد شمس) برياسة أبى سفيان. وكان الأمويون أكثر يسارا وأشد رخاء فطمعوا فى زعامة قريش، خاصة بعد أن ضربت النكبات المالية أبا طالب فوطأه الاعسار الذى أدى بالنبى (صلى الله عليه وسلم) إلى أن يضم علىٌ بن أبى طالب إلى بيته ليكفله حتى يخفف العبء عن عمه.

وهذا التنافس الشديد بين الهاشميين والأمويين كان بعيد الأثر فى فهم هؤلاء الأخيرين لمعنى النبوة، ثم تطلعهم بعد ذلك إلى وراثتها. فلقد فهموا النبوة دائما على أنها صيغة هاشمية للملك. وفى هذا يقول عمرو بن هشام بن المغيرة: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذا!.[٢] وبعد فتح مكة (سنة ٨ هـ) وقف النّبى (صلى الله عليه وسلم) يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم، لواء إثر لواء، وإلى جانبه وقف أبو سفيان شيخ الأمويين مع العباس عم النبى يشاهدان الاستعراض معا؛ فقال أبو سفيان للعباس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما» فأجاب العباس قائلا «إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان» فرد أبو سفيان بقوله «أما هذه (أى النبوة) فمازال فى نفسى منها شىء»[٣].

هذا هو رأى أبى سفيان شيخ الأمويين بعد أن أعلن إسلامه ، وهو رأى ظاهر قاطع بأن النبّى - فى تقديره - ملك أنشأ ملكا وليس نبيا أرسى دعائم الدين ورسخ قواعد الشريعة . وإذا كان أبو سفيان قد أظهر سريرته أمام العباس عم النبى إثر الفتح العظيم لمكة، فلاشك أنه قد أضمر أطماعه فى أن يرث هذا الملك له ولأبنائه من بعده. وقد بدأت هذه الأطماع تتحرك

بعد وفاة النبى وبيعة أبى بكر بالخلافة، إذ قال أبو سفيان: أين المستضعفان؛ أين الأذلان العباس (عم النبى) وعلى (ابن عمه)؛ أى أنه فهم أن الخلافة إرث رشح له مبدئيا عم النبى أو ابن عمه ، حتى يرتّب أمره بعد ذلك بالحيلة أو الغدْر - أو بهما معا- لكى ينحى من يُستخلف منهما ثم يرث هو وأسرته الخلافة (وهو ماحدث فعلا فيما بعد). وقال أبو سفيان - كذلك - مالنا ولأبى فصيل؛ (كنية استهزاء بأبى بكر) إنما هى (أى الأجدر بالإمارة) بنو عبد مناف! وقال لعلى بن أبى طالب - أيضا- مابال هذا الأمر (الخلافة) فى أقل حى (فرع) من قريش! والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا! فرد علىٌ قائلا: يا أبا سفيان: طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا. وكذلك قال أبو سفيان: والله انى لأرى عجاجة لايطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف (الهاشميون والأمويون) فيم أبو بكر من أموركم؟! فزجره على قائلا: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا[٤]!!

وواضح من ذلك أن أبا سفيان انتهز فرصة وفاة النبى ليثير فتنة ، فظل أكثر من مرة يستفز العباس وعلى (أقرب الورثة إلى النبى) ويحرضهما، ويحاول تأليب قريش ويبدى استعداده للحرب - فى سبيل المُلك- ويلوح بإراقة الدماء. ولم يقف أغراضه أو يخيب رجاءه إلا إجماع المسلمين آنذاك، وحسن تصرف على بن أبى طالب ، ووجود أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب القوى الشديد.

وإذا كان أبو سفيان قد أظهر شيئا فمما لاشك فيه أنه أضمر أشياء ، كانت تدور فى عقله وتعتمل فى نفسه، يلقنها أسرته، ويُرْضعها أولاده، حتى إذا ماسنحت لها سانحة ظهرت على الفور وعملت بكل قوة.

وبعد وفاة أبى بكر بويع لعمر بناء على كتاب من أبى بكر فلم تقم أى مناسبة للفتنة، خاصة مع شخصية عمر. وقد ولىّ عمر بن الخطاب معاوية بن أبى سفيان على الشام، فكان معاوية لدهائه أطوع لعمر من خادمه (كما قال على بن أبى طالب فيما بعد لعثمان بن عفان). وعندما عاد أبو سفيان إلى المدينة من زيارة لابنه معاوية بالشام قاسمه عمر فيما كان قد أخذه (أبو سفيان من ابنه معاوية) من أموال بعد أن فضح أمرهما بحيلة، ولم يستطع أبو سفيان أن يحتج على عمر، كما أن عمر لم يتخذ إجراء أكثر من ذلك؛ ولعله كان على ادراك بطبائع البشر ودخائل العرب ، وعلى ضعف الأمويين إزاء الملك والمال، ورغبتهم الجامحة فى هذا وذاك.

وعندما قدِم عمر بن الخطاب إلى الشام لقى معاوية وهو فى أبهة الملك وزيّه من العديد والعدة ، فاستنكر عمر ذلك وقال: أكسرويه يامعاوية!؟ فقال هذا «يا أمير المؤمنين: إنّا فى ثغر تجاه العدو وبنا حاجة إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد [٥]» فسكت عمر، إما لما احتج به معاوية من مقاصد الحق والدين، وإما لأنه اكتفى بإبداء الرأى ولم يجد جدوى فى أكثر من

هذا، فى ذلك المكان وفى ذاك الأوان . وسواء كان هذا أم ذاك فإن الأمر ينبىء عن خبيثة معاوية، وكيف أنه ما وجد فرصة - حتى فى عهد عمر - إلا وانتهزها لكى يتلبس لبوس الملوك ويتزيّا بزيهم ويتخلق بطباعهم، ثم يصبغ ذلك كله بصابغ الحق ويلونها بألوان الدين ويزخرفها بزخارف الشريعة.

وفى عهد عثمان بن عفان الأموى رجحت كفة الأمويين (وخفّت كفة الهاشميين). وتصرف الأمويون كما لو أنهم ملكوا رقاب العباد وأموال البلاد . ذلك أن عثمان بن عفان أعاد الى المدينة عمه الحكم بن أبى العاص الذى كان يسمى طريد النّبى ، لأن النّبى كان قد نفاه من المدينة، ورفض أبو بكر وعمر - خلال خلافتيهما - أن يقبلا شفاعة عثمان فيه والسماح له بالعودة الى المدينة. وعين عثمان أقرباءه الوليد بن عقبة بن أبى معيط واليا على الكوفة، وعبد الله بن عامر واليا على البصرة، وعبد الله بن أبى سرح (رضيعه) أمر مصر، وزوج مروان بن الحكم ابنته وسلمه خمس غنائم افريقيا؛ وأصبح مروان هذا الحاكم الآمر المتصرف فى كل شئون الدولة (وهو ابن الحكم بن أبى العاص طريد النبى). ونتيجة لذلك كله قامت معارضة لعثمان (والأمويين) من الهاشميين (وغيرهم) تزعمها على بن أبى طالب.[٦]

وإثر مقتل عثمان بويع لعلى بالخلافة، وكان من ضمن المبايعين له طلحة بن عبيد الله والى البصرة، والزبير بن العوام والى الكوفة ، وقد أشار أحد دهاة العرب وهو المغيرة بن شعبة على علىٍّ أن يستبقى طلحة والزبير ومعاوية على أعمالهم حتى يستتب له الأمر فرفض وعزلهم[٧] ومن ثم ادعى طلحة والزبير انهما بايعا علىّ بن أبى طالب بالخلافة تحت اكراه سيوف الثوار المتمردين على عثمان، وحاربا عليا بعد أن انضمت إليهما عائشة زوج النبى ، والتى كان بينها وبين على عداوة شديدة بسبب موقفه منها إبّان حديث الإفك[٨].

وبعدما انتصر علىٌّ على هؤلاء الثلاثة : عائشة وطلحة والزبير فى موقعة الجمل، التفت الى معاوية يحاربه، وكاد أن ينتصر عليه لولا أن هذا - بحيلة من عمرو بن العاص - استطاع أن يحمل عليا على أن يحتكما معا فى أمر الخلافة - لمن منهما تكون؟ وبمعنى آخر : هل تكون الخلافة للأمويين أم للهاشميين ؟ وعندما خسر علىٌّ التحكيم - بحيلة أخرى من عمرو بن العاص - خرج على علىٍّ بعض أنصاره، الذين سُمُّوا الخوارج، وقتلوه؛ وبذلك صفا الجو لمعاوية بن أبى سفيان وصار خليفة المسلمين [٩].

بهذا سقطت الكرة فى بئر الأمويين، وأصبح هؤلاء لاسادة قريش فحسب، بل قادة العرب جميعا وأمراء المسلمين كلهم، فوصل رسم أبى سفيان الى غايته وانتهت أحلام الأمويين الى تحقيق فى اليقظة.

وأثناء حصار المتمردين لعثمان بن عفان وطلبهم منه أن يتبرأ (يعتزل) من الإمارة، كتب رسالة يقول فيها «... أما أن أتبرأ من الإمارة فأن يكلّبونى (يقيدونى) أحب الى من أن أتبرأ

من عمل الله عز وجل وخلافته..». وبهذا النص وردت فى التاريخ الإسلامى لأول مرة صيغة «خلافة الله». ولم يكن عثمان يقصد بها المعنى الحرفى الذى يفيد أن الله استخلفه، وهو أمر لم يرد على فهم الخلفاء الراشدين جميعا، وإنما رمى به الى المجاز الذى كان شائعا فى العهد الجاهلى، بنسبة كل شىء الى الله، كأن يقال «يمين الله» و «شاهد الله» و «كتاب الله» وهكذا.

وتعبير «خلافة الله» أو «خليفة الله» تعبير أموى، يترجح أن يكون قد نحته وصاغه لعثمان مستشاره والمتصرف فى شئون دولته مروان بن الحكم (الذى صار الخليفة الأموى الرابع فيما بعد). وقد تلقف معاوية - سليل المتطلعين الى الملك - هذين التعبيرين ليجعل منهما صيغة اسلامية لمبدأ حق الملوك المقدس فى الحكم The Divine Right of the Kings ، ذلك المبدأ الذى كان شائعا ومنتشرا فى الدولة الرومانية التى حكمت الشرق الأوسط، وكانت تحكم سوريا قبل أن يفتحها المسلمون ويُولّى معاوية عليها. فلقد قال معاوية : «الأرض لله.. وأنا خليفة الله، فما أخذت لى وماتركته للناس فبالفضل منى»، وهو فى هذا القول لم يكن يرمى الى المعنى المجازى الذى درجت عليه العرب فى لغتها منذ عصر ما قبل الاسلام، لكنه كان يقصد الى المعنى الحقيقى الذى يفيد فكرة استخلاف الله له مباشرة، واطلاق الأمر بين يديه يفعل مايشاء بالمال والعباد؛ ويكون فعله هو فعل الله ذاته، ويده يد الله نفسها، وحكمه حكم الله سبحانه. وفى ذلك المعنى قال أبو ذر الغفارى : «إن قوله (معاوية) : المال مال الله يهدف إلى حجبه عن المسلمين». ومن هذا المفهوم فإن قالة معاوية إن الحكم حكم الله والخلافة خلافة الله ترمى إلى حجب الحكم والخلافة عن المسلمين، ومنع أى فرد من التطّلع إليها والتطمع فيها.

وقد أدى كل من التعبيرين السالفين، بمفاهيمه ومضامينه، إلى النتيجة التى ابتُغيت منه، وهى حجب المسلمين عن الحكم والخلافة وتوطئة الطريق اليهما لبنى أمية وحدهم، حتى تكون الخلافة ملكا بالواقع وكسروية فى الحقيقة وقيصرية بالفعل. ذلك أن معاوية جمع من اعتبرهم أهل الحل والعقد، ووقف فيهم المغيرة بن شعبة خطيبا، فأشار إلى معاوية وقال : أمير المؤمنين هذا، ثم أشار الى يزيد بن معاوية وقال : فإن مات فهذا، ثم أمسك بسيفه وشهره قائلا: ومن أبى فهذا [١٠]. بذلك صار السيف أصدق أنباء من الكتب، والتهديد أفعل فى النفوس من الإيمان، والخوف أطفأ لأى غضبة للحق. وصارت الخلافة، من هذا الوقت، ملكا يُورّث ولو لفاسق، وإرثا يُملّك ولو لظالم، وضيعة توهب ولو لمفسد. ولم يعد لجماعة المسلمين فى أمر الخلافة كلمة إلا نظريا، أو رأى إلا ادعاء، أو اعتراض إلا رياء.

وسواء أشار الخلفاء الى الشعراء، أو فهم هؤلاء الوضع ملقا وزلفى، أو أصبح التعبير ضمن مفردات الناس العادية، فقد عمد الشعراء إلى استعماله، كما لجأ الكتاب الى

استخدامه، حتى أصبح هو النظرية الاسلامية فى الحكم، ثم صاغ أسلوب تعميم المسائل السياسية وتشييع القواعد السلطانية فى الإسلام.

ففى التاريخ الإسلامى لايبدأ الأمر بنظرية توضع ثم تطبق فيما بعد، أو بقاعدة تُحدد ثم تسرى لاحقا، لكنه بسبب تعبيرات «خلافة الله» و«حاكمية الله» و«مال الله». وغيرها، سار فى طريق تميز به خاصة، هو أن يبدأ الأمر بشعار يُرفع أو صيغة تُنحت أو كلمة تُقال أو هتاف يُدفع، ثم يتخلق حول الهتاف جمع وعلى الكلمة جماعة وعلى الصيغة أناس وتحت الشعار حزب؛ ويعمل الحزب والناس والجموع على تعميم حركاتهم، ولات حين تعميم، أو اشاعة تصرفاتهم - وما بئسه تشييع، ذلك أن التعميم يتحول إلى تبرير، والتشييع ينتهى إلى تقليد.

وهكذا يبدأ الوضع بتعبير شارد أو صيغة غامضة هى «خلافة الله» أو خليفة الله» ثم يتعمم عبر التاريخ ويتشيع خلل الأيام ليصير شبه نظرية سياسية وشكل قاعدة فقهية، تطبق بأثر رجعى على أحداث لم يخطر لها المعنى على بال وتستنطق رجالا لم يرد لهم المفهوم على خاطـــر.

* * *

يقول الشاعر مسكين الدارمي، وهو يمهد لاستخلاف يزيد بن معاوية:

بنى **خلفاء الله** مهلا فإنما ∴ يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلأ ربه ∴ فإن أمير المؤمنين يزيد

ويقول عبد الله بن همام السلولى للأمويين:

خلافة ربكم حاموا عليها ∴ ولاترموا بها الغرض البعيدا

ويقول الأخطل للوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ - ٧٠٥ م):

خليفة الله يستسقى بسنته ∴ فى الغيث عند مولى العلم منتخب

ويقول جرير لذات الخليفة :

فأنت **لرب العالمين خليفة** ∴ ولى لعهد الله بالحق عارف

ويقول للأخطل كذلك:

الخائض الغمر والميمون طائره ∴ **خليفة الله** يستسقى به المطر(١١)

فهاهم الشعراء جميعا، وجمهور المسلمين معهم أو من بعدهم، يرى أن الخليفة خليفة الله، ويُزيد مسكين الدارمى فيخاطب معاوية والأمويين فيسميهم «بنى خلفاء الله» فمن هم هؤلاء الخلفاء؟ أبو سفيان الذى لم يسلم إلا عند فتح مكة فكان من الطلقاء، أى الذين أطلقهم النبى وقال لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء» منًّا عليهم ورحمة بهم، أم آباء أبى سفيان وقد عاشوا وماتوا فى الجاهلية قبل الإسلام!؟ لقد أصبح الأمويون - بعد ملك معاوية - كما أرادوا أن يكونوا

دائما، ملوك العرب تحت لافتة «خلفاء الله». وهذه العبارة - كما سلف البيان - صيغة دينية للملك وعبارة شرعية للإمارة. فالملك ملك قح يتمحك بالدين؛ والإمارة إمارة بحتة تتمحل بالشريعة.

ويشهد تاريخ الخلافة الأموية - كما يرى جميع المؤرخين - أنها كانت خلافة دنيوية وملكا قحا وسلطانا صرفا، ولم يكن لها من الدين إلا المظهر ولا من الشريعة إلا القشور. أما الخلفاء الأمويون، فعلى نحو ما سوف يلى فيما بعد ، كانوا رجال دنيا وساسة ملك ، وكانوا فى الغالب فسقة وفى الأغلب ظلمة.

وثم مثال واحد ، فى هذا الصدد، يغنى عن كثير ، فعبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص (الخليفة الخامس) كان من أشهر فقهاء المدينة فى عصره ، يذكر فى ذلك مع ثلاثة آخرين هم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب، ولما أفضى إليه أمر الخلافة كان المصحف فى حجره فأطبقه وقال، هذا آخر العهد بك. فهذا الفقيه الشهير والإمام الجهير والمرشد المستنير تحول عند الخلافة الى العكس تماما وإلى الضد كلية، فظهرت له شخصية مخالفة وبدت له نفسية مغايرة، دنيوية كالحة ، وسلطوية كاشحة، هى شخصية الأمويين ونفسية بنى عبد شمس؛ وليس أدل على ذلك من أنه قال «لا أداوى هذه الأمة (أمة المسلمين) إلا بالسيف حتى تستقيم لى (لا لله) قناتكم» كما قال وهو يقف على منبر الرسول بعد قتل عبد الله بن الزبير (سنة ٧٥ هـ): «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله (هكذا!!) بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه». وعندما داهمته المنية قال لابنه وخليفته الوليد بن عبد الملك: «ياوليد لا الفينك إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالأمة الولهاء، بل إئتزر والبس جلد النمر وادع الناس الى البيعة فمن قال برأسه كذا (أى لا)، فقل بالسيف كذا (أى اضرب عنقه)[١٢]

* * *

هذه هى خلافة الأمويين، قيصرية كسروية، حكم الخلفاء فيها بدعوى خلافة الله (أو الحق الالهى المقدس فى الحكم) ومنعوا الناس من التطلع إلى الحكم أو السؤال عن مال المسلمين؛ وحكموا بالسيف والنطع، وجعلوا الخلافة ملكا يورث، ولبسوا الثياب الفاخرة والعدة الكاملة، وركبوا الخيل المسومة، وصلوا بعيدا عن الناس فى المقاصير، وجلسوا على أرائك السلطان، وأقاموا الحرس والحجاب، ومشى صاحب الشرطة بين أيديهم بالحراب.

وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن خلدون «... انقلبت الخلافة إلى الملك.. صار الأمر إلى الملك... ويظهر التغير.. فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب الى عصبية وسيف... ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها، وصار الأمر ملكا بحتا، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ... ذهب رسم الخلافة... وبقى الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق...»[١٣].

وإذا ماكانت الخلافة ملكا بحتا وسلطانا قحا فإن أعمال الخلفاء كلها وأقوال الولاة جميعا لاتصرف إلى الدين حتى وإن أفادته بطريق غير مباشر، ولاتنسب إلى الشريعة حتى وإن استخدمها لستر بشاعتها. لقد فتح الأمويون بلادا كثيرة ونشروا الاسلام فى بقاع شتى، لكنهم فعلوا ذلك أساسا لتثبيت ملكهم ومد سلطانهم وتكثير أموالهم، وسيروا جموع المسلمين المؤمنين البسطاء إلى الحروب تحت راية الاسلام، ودفعوهم إلى الغزو باستخدام معنى الجهاد.

ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال لمعاوية وقد رآه تزيا بزى الملوك وتطهم بطهام السلاطين: أكسروية يامعاوية!؟ لقد كانت كلمة من حُجب الغيب وسُجف المستقبل، فقد كشفت الأيام عن أن الخلافة كسروية صرفا وقيصرية بحتا.

الفـــتن

يعتقد بعض الناس زيفا، ويشيع البعض الآخر زورا، أن عهد الدولة الأموية كان عهد استقرار وأمان، ازدهرت فيه القيم الاسلامية وترسخت فيه أحكام الشريعة، وحظى المسلمون بفترة من الأمن لاتُطاول وحقبة من السلام لاتُقارن! والحقيقة عكس ذلك تماما، فقد كان عهد الدولة الأموية عهد فتن متوالية ومحن متتالية، وظلمات بعد ظلمات، وغواشٍ إثر غواشٍ، بهتت فيه معالم الاسلام الأساسية، وخفتت فيه روح الدين البراقة؛ وتحولت هذه وتلك إلى صيغ مخالفة تماما ومفاهيم مناقضة كلية.

من هذه الفتن التى ظلت مستمرة طوال عهد الدولة الأموية ماحدث من المسلمين، وما وقع فى البيت المالك.

أولا - ماحدث من المسلمين :

أ - بعد ما قُتل على بن أبى طالب بويع لابنه الأكبر الحسن بن على بالخلافة ، وكان الناس فى ريب من بيعته. وقد خرج مع شيعته لقتال معاوية فانفشلوا، مما اضطره الى تسليم الأمر إلى معاوية ومبايعته له بغضا فى أعوانه الذين خذلوه . وقيل إن الحسن بايع معاوية لقاء ألف ألف درهم ، وقيل مائة ألف دينار ، وقيل أربعمائة ألف درهم ، وقيل إنه شَرَط على معاوية أن يمكّنه من بيت المال يأخذ منه حاجته ، وأن يكون ولى العهد من بعده . وسُمّىَ العام الذى حدث فيه ذلك عام الجامعة، لاجتماع أمة المسلمين بعد الفرقة على خليفة واحد. ورغم مبايعة الحسن فقد ظل معاوية على تخوف من جانبه، أو لعله أراد حرمانه من ولاية العهد ونقلها إلى ابنه هو «يزيد»، فدس على الحسن من سقاه السم أكثر من مرة فلم يمت إلى أن دسته له زوجه (جعدة بنت الأشعث) فى عسل أكله، فمكث شهرين فى ألم شديد إلى أن توفاه الله. ولما بلغ معاوية موت الحسن كبّر وكبّر معه أعوانه، وقال من قال من هؤلاء : إن لله جنودا من العسل.

وقد دامت خلافة الحسن ستة أشهر وخمسة أيام، وقيل ستة أشهر إلا أياما.

ب - وبعد أن ولى يزيد بن معاوية الخلافة خرج عليه الحسين بن على بن أبى طالب فى جمع من شيعته. وكان أهل الحجاز قد بايعوه، فذهب للقاء جيش يزيد بقيادة عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان (أو ابن أبيه)، فقتل فى كربلاء (عاشوراء سنة ٦٠هـ - ٨٦٠م)، وذبحه سنان بن أنس النخعى وجز رأسه وسلب الحسين ماكان عليه؛ ومال الناس على الفرش والحلل والإبل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النّساء من لباس، حتى إن المرأة كانت لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها. ثم ندب القتلة عشرة منهم فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره[١٤]. وقتل مع الحسين اثنان وسبعون رجلا منهم من أولاد على بن طالب أربعة هم العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر، ومن أولاد الحسن أربعة كذلك. وحمل الجنود رأس الحسين

هـ - وفى سنة ١٢٢هـ خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب بدعوى الخلافة (فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان). وقد بايع لزيد عدد كبير من الناس، وجرى قتال بين جيش بقيادته وجيش الخليفة، فأصيب زيد أثناء المعارك بسهم فى رأسه ومات. وبعد أن دفن عثر أحد أتباع الخليفة (ويدعى يوسف بن عمر الجرحى) على قبر زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها إلى الخليفة فصلبت على باب دمشق وصلبت الجثة فى الكناسة، وظلت مصلوبة حتى مات الخليفة هشام وولى من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأمر بإنزالها واحراقها.

و - وفى سنة ١٢٥ هـ قُبض على يحيى بن زيد بن على زين العابدين بن الحسين بخراسان، وكان قد هرب إليها بعد مقتل أبيه (زيد بن على زين العابدين) وسار منها إلى بلخ مختفيا، ثم سار مع جماعة من أصحابه إلى نيسابور فرأوا تجارا وجماعة من أبناء السبيل فهاجمهم يحيى وأتباعه وسلبوهم أمتعتهم وأخذوا دوابهم، ومن ثم تعقبه جند الخليفة الوليد بن يزيد حتى قتلوه واحتزوا رأسه، وسلبوه قميصه، وصلبوا جثته بالجوزجان. ولم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى فأنزل الجثة وصلى عليها ودفنها.

ز - وعلى الرغم من أن الخوارج كانوا قد خرجوا أصلا على علىّ بن أبى طالب فقد هالهم مالحق الأمة من الانقسام بسبب التنافس على الخلافة بين على ومعاوية، فأسرّوا قتل هذين وعمرو بن العاص معهما، واستطاعوا قتل على وحده؛ غير أنهم صاروا أعداء لجماعة المسلمين عموما، وأعداء لكل الحكام على وجه خاص.

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان خرج عليه الخوارج بقيادة فروة بن نوفل الأشجعى الحرورى ثم معن بن عبد الله ثم أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب. وقد خرج هذا الأخير إلى الحرب ومعه امرأتان، وكان أول من يُخرج معه النساء على الخليفة، فلما عيب عليه ذلك قال : قد قاتل النساء مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ومع المسلمين بالشام.

وفى عهد عبد الملك بن مروان اشتد ساعد الخوارج فقاتلهم. وكتب اليه عبد الله بن أباض (شيخ الأباضية إحدى فرق الخوارج) كتابا جاء فيه «.. إن الله ليس ينكر أحد شهادته فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون والفاسقون والكافرون..»؛ وهو بذلك وإن كان يلمح إلى على بن أبى طالب فإنه - كذلك - كان يعرّض بعبد الملك بن مروان - وكل الخلفاء - حيث انهم، فى تقديره، لايحكمون بما أنزل الله.

وفى عهد هشام بن عبد الملك كثر الخوارج ودعاتهم، وكانت لهم وقائع كثيرة مع عماله. واشتعلت فتنتهم فى أماكن متعددة، وهم يدعون إلى إعمال حكم الله الذى لايطبقه الخليفة ولايُعمله الولاة، كما كانوا يقولون.

ثانيا - ما وقع فى البيت المالك :

وإلى جانب هذه الفتن والقلاقل فى جماعة المسلمين، فقد وقعت فتن كثيرة وقلاقل شتى فى البيت المالك ذاته.

أ - فقد بايع مروان بن الحكم (رابع الخلفاء) للخلافة ابنه عبد الملك بن مروان، وكان قد أقسم من قبل أن يولى خالد بن يزيد ابن زوجه، فاستاءت هذه وابنها وخدعت مروان، وإذ كان ينام عندها ذات ليلة قامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشربا بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها فكتمت أنفاسه حتى مات.

ب - وعندما ضاق بنو أمية وحواشيهم بالخليفة العادل العفيف الزاهد عمر بن عبد العزيز، وتحالفوا معا على بغضه، ولكل سببه، رشوا عبده (الأسود) فدس له السم لقاء ألف دينار، ومات عمر مما شرب من السم (ولم تزد خلافته على عامين إلا قليلا).

جـ - ودخل يزيد بن الوليد بن عبد الملك على عمه الخليفة الوليد بن يزيد هو وجماعة بايعته هو خليفة بدلا من الخليفة، فقتلوا الخليفة الوليد الذى قال عندما رأى قتلته : يوم كيوم عثمان؟ فقالوا له : ولاسواء؛ ثم قطعوا رأسه وطافوا به فى دمشق ثم نصب على قصر الخليفة أعلى سور دمشق.

د - واشتدت الفتن فى عهد يزيد هذا (ابن الوليد بن عبد الملك) وكانت الأمور مضطربة عليه، إذ قامت الفتن على ساقها وهاجت، وخرج عليه أهل حمص، واختلف أهل فلسطين ووثبوا على أمرائهم وولاتهم. ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان، فخرج من حبس كان فيه (بأمر الوليد بن يزيد) وأخذ ماكان بالمدينة من أموال، وذهب إلى دمشق يثير أهلها على الخليفة، وخرج أهل اليمامة على أميرهم واشتد الاضطراب وعم الخلل.

هـ - وعندما مات يزيد بن الوليد وولى الخلافة بعده ابراهيم بن الوليد (أخوه) كانت أمور الدولة قد سارت إلى الفوضى الشاملة. وكان الناس يسلمون على إبراهيم هذا بالخلافة مرة، ومرة بالإمارة وحدها لا الخلافة، ومرة ثالثة دون ما إمارة أو خلافة. وفى عهده نبش قبر يزيد الثانى وصلبت جثته. ثم خرج عليه مروان بن محمد (وكان واليا على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان) فقتل الخليفة وصلبه.

وظل مروان بن محمد خليفة حتى خرج عليه العباسيون والعلويون فقتله جند لهم فى أرض مصر، وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى أبى العباس السفاح فخر ساجدا!!.

* * *

فالذى يقرأ هذه الفتن والقلاقل، دون أن يقرأ الاسماء، لايمكن أن يتصور أن تحدث فى ضحى الاسلام وشدته، وفى أول دولة له، وأكثر الخلافات فتوحات وامتدادا. فالفتن والقلاقل لاتخرج عن مثلها مما يحدث فى عصور الجاهلية وعهود الوثنية، لافى مجتمع يدين بالله ويطبق شريعته. فأين الاسلام فى كل هذا الذى وقع؟ وأين كانت الشريعة وهو يحدث؟ وكيف

كان يصلى أو يتعبد من يضرب الكعبة بالمنجنيق، ومن يحز الرءوس، ومن يسلب النساء، ومن يسم الخصوم، ومن ينبش القبور، ومن يصلب الجثث!؟

لقد وقع هذا الذى وقع، من طمع الملك وجشع المال. إنها السياسة لا الدين، والتحزب لا الشريعة. ففى كل ماحدث لم يظهر اختلاف على تفسير (إلا فيما يتعلق بالخوارج)، أو يبدو صراع على أساس الدين، أو يلوح نزاع على أصول الشريعة. كلها خلافات سياسية وأطماع دنيوية ونزعات جاهلية وتصرفات وحشية واندفاعات همجية لم تتهذب بالدين ولم تتشذب بالشريعة.

المظالم

من المآلف الشائعة والمعارف السائدة أن الظلم يقع دائما، سواء على المستوى العام أم على المستوى الخاص، وأن العسف يحدث دوما، سواء من الحكام أم من سواد الناس. غير أن مايؤسف حقا ويدمى فعلا أن يقع الظلم باسم الحق وأن يحدث العسف بدعوى العدل، فيظلم من يظلم وهو يزعم أنه يحق الحق ويرفع اسم الله، ويعسف من يعسف وهو يدعى أنه يقيم العدل ويعلى من شأن الدين. فهذا هو الظلم البالغ المكبر والعسف الشديد المضاعف؛ يحدث بتزييف المعانى ويقع بتحريف الدين، فيخلق دوامات كبيرة من المعانى الباطلة ويوجد أعاصير عنيفة من المعتقدات الفاسدة.

وقبل الإسلام كانت المظالم تقع بين القبائل العربية، لكن باسمها الحقيقى وأوصافها الطبيعية، قتل أو عدوان أو سلب أو نهب أو اغتيال أو حل للدماء أو إباحة للأعراض أو إهدار للحياة.. وهكذا؛ أما منذ عهد الدولة الأموية فقد شرعت المظالم تقع باسم الدين وبدأت التعاسيف تحدث بدعوى الشريعة، فتضاعفت هذه وتلك، وأصبح الناس مستسلمين لها، من خوف الطغاة مرة، ومن خوف التكفير مرات؛ مستذلين بها، من بأس البغاة حينا ومن بطش الاتهام بالردة أو الحرابة أحيانا.

والمظالم فى عهد الخلافة الأموية كثيرة كثيرة، تتسع لها مجلدات لاتنتهى وتنفسح لها صفحات لاتنطوى؛ غير أنه يكفى فى هذا الصدد أن يذكر أهمها وأن يشار إلى أبلغها. وفيما عدا واقعات اغتيال الحسن بن على وقتل الحسين بن على وزيد بن على زين العابدين ويحيى بن زيد وغير ذلك، بما صاحبها من صور أليمة وتمثيل بشع وتصرفات بربرية، فقد حدثت واقعات أخرى صارت لما بعدها مثلا ومثالا.

فقد حدث أن توفى المغيرة بن شعبة وهو أمير الكوفة فجمعت الكوفة إلى البصرة تحت إمارة زياد بن أبى سفيان (أو ابن أبيه) فدخل الكوفة فى ألفين من شرطة البصرة، ثم صعد على المنبر وخطب فى الناس. وما إن فرغ من الخطبة حتى حصب (قذف بالحجارة) وهو لم يزل

على المنبر. فجلس حتى سكت الناس ثم دعا قوما من خاصته وأمرهم فوقفوا بالسيوف على أبواب المسجد، ثم أمر بكرسى فوُضع له على باب المسجد وطلب من الناس (المصلين) أن يخرجوا (فى تشكيل) أربعة أربعة يحلفون بالله مامنهم من حصبه، فمن حلف خلاه، ومن لم يحلف عزله وحبسه حتى جمع ثلاثين، ويقال بل كانوا ثمانين، قطع أيديهم على الفور فى ذات المكان، بتهمة الحرابة[١٧].

وقابل زياد هذا رجلا (اسمه أوفى بن حصن الطائر) فسأله عن عثمان بن عفان فلم يقل شرا، فسأله عن معاوية فلم يقل شرا، فسأله عن نفسه هو فقال الرجل : بلغنى أنك قلت بالبصرة : والله لآخذن البرئ بالسقيم والمقبل بالمدبر، قال زياد : قد قلت ذلك، فقال الرجل : خبطتها عشواء (أى من غير بصيرة) فقتله زياد على الفور جزاء هذا القول.

وكان جحر بن عدى الكندى فى المسجد يستمع إلى خطبة زياد بن أبى سفيان، فقال هذا : ... إنا قد جربنا وجُربنا، وسسنا وساسنا السائسون، فوجدنا هذا الأمر لايصلح آخره إلا بما صلح أوله (!!!).. ووجدنا الناس لايصلحهم إلالين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف، وإنى والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله (طرقه). فشغب عليه جحر. وفى مرة تالية قال زياد - وقد أراد أن يبطش بجحر: - وأيم الله لئن لم تستقيموا (له لا لله) لأداوينكم بدوائكم، وما أنا بشئ إن لم أمنع باحة الكوفة من جحْر وأدعه نكالا لمن بعده. ثم أرسل زياد كتابا إلى الخليفة معاوية شدّد فيه على جُحر، فكتب اليه معاوية أن شده فى الحديد ثم احمله إلىّ. فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم جحر أن يمنعوه فقال: لا، ولكن سمع وطاعة. فشُدّ فى الحديد ثم حُمل إلى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال له معاوية: أمير المؤمنين ! أما والله لا أقيلك ولا استقيلك، أخرجوه فاضربوا عنقه؛ ثم أُخرج وضرب عنقه،[١٨] وكانت هذه ثانى مرة فى الإسلام يقتل فيها رجل صَبْرًا (أما الأول فقد كان عقبة بن أبى معيط بعد غزوة بدر)[١٩].

وقد قيل إن عائشة (زوج النبى) قابلت معاوية فقالت له : يامعاوية أين كان حلمك عن جُحر !؟ قال لها : ..لم يحضرنى رشيد (أى لم يكن معى مشير عاقل). وهكذا أقر الخليفة أنه لم يكن رشيدا ولم يكن فى حاشيته كلها رشيد.

وفى سنة ٦٠هـ خلع أهل المدينة بيعة يزيد بن معاوية (لما عُرف عنه من فسق). فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة حيث قاتل أهل المدينة فهزمهم فى موقعة الحَرّة الشهيرة. ثم أصدر القائد المسلم أمراً لجيش المسلمين باستباحة مدينة النّبى ثلاثة أيام (كأمر الخليفة له)- كما يفعل الغزاة الأجانب الهَمَج بأى شعب مهزوم . وبذلك أبيحت دماء وأموال وأعراض المسلمين لغيرهم من المسلمين. وقيل إنه قتل فى هذه الأيام الثلاثة أربعة آلاف وخمسمائة مسلم، وأنه قد فُضت بكارة ألف فتاة بكر. ثم ألزم القائد المسلم من بقى فى المدينة من المسلمين أن يبايعوا

يزيدا على أنهم خَوَل (عبيد) له، ومن أبى منهم هذه الصيغة المشينة المهينة للمبايعة قُتل. ومن وقت موقعة الحرة هذه وقف دور المدينة فى التاريخ الأسلامى حتى عهد قريب.

وعندما وصل نبأ ما حدث فى المدينة إلى يزيد خليفة المسلمين وأمير المؤمنين قال:-

ليت أشياخى ببدر شهدوا ∴ جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحا ∴ ولقالوا ليزيد لا فشل

أى أن الخليفة - الذى يوجبون له السمع والطاعة بحكم الدين - ويُدْعَى له بالتوفيق والتأييد من على منابر المساجد جميعا - ويرى البعض أنه خليفة الله سبحانه - هذا الخليفة رأى فى موقعة الحرة الفظيعة، التى لاتقع الا من غزاة برابرة همج على شعب أجنبى مهزوم ضعيف، ولايتصور حدوثها من مسلمين على مسلمين فى صدر الاسلام وأول دفعاته - رأى الخليفة فى هذه الموقعة، التى هى سبة فى وجه أى مؤمن، انتقاما لأشياخه، أى آباء وأجداده، من أهل المدينة (الذين كان يعبر عنهم بالخزرج نسبة إلى كبرى قبيلتيها) لما وقع من هؤلاء الخزرج فى حق هؤلاء الأشياخ حين حاربوهم فى صفوف النبى ليهزموا آل سفيان وينصروا راية الاسلام!! فهل يمكن أن يعد مثل هذا الخليفة خليفة لله أو خليفة للمسلمين أو حتى مجرد عامل مسلم !؟ وهل يجوز أن تعد غزوات هذا الخليفة غزوات فى سبيل الله أو لنصر الاسلام؟

إن موقعة الحرة هذه هى المعيار الصحيح لغزوات يزيد بن معاوية، وغزوات الخلفاء الأمويين جميعا. فإن كانت الموقعة قد وقعت فى سبيل الله ولنصر الاسلام وتثبيت الشريعة، فلمثل هذه الأغراض وقعت باقى الغزوات. أما ان كانت الموقعة هجمة بربرية ونزلة جاهلية، لاصلة لها بالدين أو الشريعة، وأنها كانت لتثبيت ملك وبسط سلطان واشباع أهواء، فعلى مثلها كانت باقى الغزوات. هذه بتلك، ولايمكن أن يكون الخليفة على مثل هذا الكفر بالله وبكل قيمة، وهذا التردى العقلى والنفسى والخلقى، وامتهان كل قيم الاسلام وأعراض المسلمين، ثم يتحول فى لحظة أخرى - أو موقعة تالية - من النقيض إلى النقيض.

شعر بهذه المعانى معاوية بن يزيد بن معاوية (الخليفة الثالث) فخلع نفسه من الخلافة عن رضا ورغبة وقد أبى الظلم على نفسه، ورفض أن يفسد سياسة باسم الدين وأن يطغى تحزبا تحت راية الشريعة، وأن يستذل الناس بسلطان الاسلام. وخطب فى الناس قائلا : أيها الناس ما أنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم !! وإنى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضا لأننا بُلينا بكم وبُليتم بنا... وقد كان أبى يزيد بسوء فعله واسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه، وأقدم على ماأقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته...»[٢٠]

فهذا هو الخليفة يعترف أنه يكره فى الناس مايراه منهم وأنه يعلم أن الناس تكرهه، وهو يعترف أن خليفة المسلمين وأمير المؤمنين (أو خليفة الله، كما يقول البعض) يزيد، والده، كان

فاسقا غير جدير بالخلافة، اجترأ على الله واستحل الحرمات! فهل بعد هذا الاعتراف الذى صدر من أهله أى اعتراف آخر بأن من يسمى زورا وبهتانا خليفة الله أو خليفة الرحمن، ليس الا خليفة ابليس وخليفة الشيطان!!

فماذا حدث للخليفة الغر الذى أخذته براءة الشباب وغضاضة الحياة فاعترف بالحق وأقر بالواقع. لقد مات بعد أربعين يوما من خلعه نفسه (وعمره ٢١ أو ٢٣ سنة). فهل مات ميتة طبيعية أم قتل لجرأته على قول الحق والاعتراف بالواقع!؟ قتلته الأيدى صاحبة المصالح فى تزييف الحق وتزوير الواقع، والادعاء بأن الظلم حق والعدوان شرع والإفساد دين!؟

أما معلمه «عمر المقصوص» فقد اتهم بأنه هو الذى دفعه الى أن يقول ماقال ويفعل مافعل، وأنكر من جانبه فلم يصدقه بنو أمية، ودفنوه حيا!!!

وقد سلف بيان قول عبد الملك بن مروان حين قال «لاأداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى (لا لله!!) قناتكم». وعبد الملك هذا هو الذى استعمل الحجاج بن يوسف الثقفى وسيره لقتال عبد الله بن الزبير بمكة، ثم أوصى - وهو على فراش الموت - ابنه يزيد به.

وروى عن عمر بن عبد العزيز (الخليفة الأموى الثامن فيما بعد) أنه قال : الوليد (ابن عبد الملك بن مروان - الخليفة السادس) بالشام، والحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق، وقرة بن شريك بمصر، وعثمان بن حيان بالحجاز : امتلأت والله الأرض جورا. وقال عمر أيضا: لو وضعنا الحجاج بن يوسف الثقفى فى كفة وجاءت كل الأمم بولاتها الظلمة فى كفة أخرى لرجحت كفة الحجاج (فى الظلم).

هذه شهادة شاهد عدل من أهلهم ومن أهلنا. لقد أخرج من السجن - عندما ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان - ثلاثون ألف شخص كان الحجاج قد سجنهم دون ذنب، ظلما وعدوانا.

وفى عهد هشام بن عبد الملك (الخليفة العاشر) أظهر شخص يدعى الجعد بن درهم مقالته بخلق القرآن (والتى صارت دستورا للإيمان فى عهد الخليفة العباسى المأمون) فأرسل الخليفة إلى والى العراق (خالد القسرى) يأمره بقتله، فحبسه ولم يقتله، فبلغ الخبر الخليفة فكتب إلى واليه يلومه ويعزم عليه أن يقتل الجعد بن درهم، فأخرجه الوالى من الحبس فى وثاقه، ولما صلى العيد يوم الأضحى قال فى آخر خطبته: انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم، ثم نزل من على المنبر وذبحه ذبح الشاه!!؟[٢١]

* * *

هذه نماذج من المظالم التى لايمكن أن تقع إلا فى جاهلية وبربرية وهمجية، فى دول ظالمة ومن حكام لايعرفون الله. وفى شعوب تؤمن بالله على حرف وتعتقد فى الإسلام على خوف، فلا تقول قولة حق لأحد ولا تدفع أى ظلم عن أحد.

وفى هذه المظالم قال عمر بن عبد العزيز (وهو ماهو) : لقد ملئت الأرض جورا. فكأن

الأرض ملئت جورا وحشيت ظلما ونشرت فسادا فى عهد الإسلام الأول، فى ضحى الأمجاد العظيمة وعز القيم والأخلاق. وهذه هى الفترة التى يدعو البعض إلى عودتها - جهلا أو غرضا - ويظن أنها خير بلا شر، وحق بلا ظلم، وصلاح بلافساد؛ فى حين أنها كانت طغيانا لاحدود له، ومظالم لاتكف ولاتنتهى، وظلاما بلا أى أمل فى إشراق سعيد أو فجر جديد.

الترف والمفاسد

يحض الاسلام - كما هو شأن الدين دائما - على الزهد والتقشف والاعتدال، وربما حبذ الفقر الذى يحول دون فساد الثراء، وطغيان الغنى، وسطوة المال، ومساوئ الاكتناز، وعبث المترفين.

ففى القرآن : «للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض» (سورة البقرة ٢:٢٧٣)، «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم» (سورة الحشر ٥٩:٨) فالقرآن بذلك يحبذ غنى النفس وفقر المال عن فقر النفس وغنى المال، وفى هذا المعنى - الذى يحبذه القرآن - يقول الشاعر الجاهلى :-

غنى النفس ماعمرت غنى ∴ وفقر النفس ماعمرت شقاء

وهو اتجاه مضاد ومعاكس للنزعة الجاهلية التى تفضل المال على الخلق، والترف على الزهد، والسطوة على التواضع، والاكتناز على الإنفاق. وفى هذه المعانى الجاهلية يقول عروة بن الورد:

دعينى للغنى أسعى فإنى ∴ رأيت الناس شرهم الفقير

وقد روى عن النبى (صلى اللع عليه وسلم) أنه قال : اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين. وروى عن عائشة (زوج النبى) أنها قالت : ما شبعنا من طعام قط إلا بعد فتح خيبر.

فالمسلمون الأوائل كانوا يعيشون عيشة زهد وتقشف وربما ضنك. فلما حدثت الفتوح اتسعت أحوالهم وأصابهم الرخاء وزادت أموالهم وتكدست كنوزهم. ففى أيام عثمان بن عفان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له هو يوم قُتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم. وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلا وخيلا كثيرة. وبلغ الثّمن الواحد مما ترك الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله بعير وعشرة آلاف رأس من الغنم، وبلغ الربع من متروكه (ميراثه) بعد وفاته أربعة وثمانين ألف دينار. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ماكان يكسر بالفئوس، غير ماخلف من الأموال والضياع وتقدر بمائة

الف دينار. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى دورا بمصر والكوفة والاسكندرية. وبنى طلحة دار بالكوفة، وشيد دارا بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج. وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق، ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد بن الأسود داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.(٢٢)

بهذا أدت الغنائم والفيوء إلى تحول المسلمين من حال شديد الفقر ظاهر المسبغة إلى حال مسرف الغنى بيّن الترف، بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية ونتائج وخيمة على قيم الإسلام وأخلاق المسلمين.

وقد ظهر الترف وبانت المفاسد فى أحوال الخلفاء وقادة المسلمين، وفى قصور هؤلاء وهؤلاء، ثم انتقلت منهم إلى سائر الناس الذين قلدوهم وتمثلوا بهم، على نحو مايقال : إن الناس على دين ملوكهم.

فالخلفاء الأمويون - بدءا من معاوية بن أبى سفيان - وفيما عدا معاوية الثانى (قليل الأيام) وعمر بن عبد العزيز - تطهموا بطهام الملك وتحشموا بحشم القياصرة وتلبسوا لبوس الأكاسرة، وتوسعوا فى المظاهر والتبذير الى أقصى درجة. واتخذ معاوية - ثم من تبعه - الخدم والحشم والجوارى والعبيد. وكان يمشى وصاحب الشرطة أمامه بالحربة. ووضع بينه وبين الناس حجابا. واتخذ لنفسه فى المسجد مقصورة خاصة يصلى فيها. وزاد يزيد الثانى فخرج يوم العيد بين صفين من الجنود يحملون السلاح.

وضيق الخلفاء على غيرهم من بطون قريش، وبخاصة العباسيين والعلويين، ومنعوهم - كما منعوا غيرهم - من مباشرة السياسة أو ممارسة الشئون العامة أو مجرد الاتصال بها، وحجروا عليهم أى تفكير فى هذه المسائل، فالتزم هؤلاء أراضى الحجاز وانصرفوا إلى اللهو والغناء والشراب والمجون، خاصة وكانوا قد حصلوا - باعتبارهم أو اعتبار آبائهم العنصر الفاتح - على أكثر الأموال وأفضل الجوارى وأرفعهن نسبا وأكثرهن تأدبا، فأدبوهم بأدبهن ورقوهم بذوقهن، ومن ثم أسرفوا فى اللهو والترقق والترف والفساد شأن كثير من محدثى النعمة الذين غنوا بعد مسبغة وشبعوا بعد جوع ونالوا بعد حرمان.

بذلك حوت الدولة الإسلامية كثيرا من المتناقضات. فقد كان فيها فقه وفيها ترف، سلطة وفتن، دين ودنيا، جد ولهو، عمل وعبث، شظف وتنعم. وقد ظهر فى ذلك الجو من المفاسد مالا يقل عن مفاسد أى عصر أو أى مصر. فقد انتشر شرب الخمر والتشبيب بالنساء حتى فى موسم الحج، واللهو واللعب، والغناء والرقص، والتخنث واللواط. وأمتلأت مكة والمدينة- أرض الحرمين- بالمغنين والمغنيات، بما صاحب ذلك ولزم عنه من حواشى الفساد ولوازم التدنى.

واجتمع فى زمن واحد من مشهورى الغناء جميلة وهيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبوره وعزة الميلاد وحبابة

وسلامة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وسعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محجر.

وروى أن سعيد بن مسجح المغنى أفسد فتيان قريش وأنهم أنفقوا عليه أموالهم، فكَتب عبد الملك بن مروان إلى واليه ليقبض عليه ويسيّره إليه. وكذلك رُوى أن الإمام مالك بن أنس كان يتبع المغنين وهو حدث ويأخذ عنهم ويزمع أن يكون منهم لولا أن نصحته أمه ألا يفعل لأنه قبيح الوجه لا يُلتفت إليه إن احترف الغناء، فانقلب إلى الفقه.

وقد أدت شهرة الحجاز بالغناء إلى نشوء مقامات وألحان نُسبت إليه فسُميت «حجازية» وشاع عن أهل الحجاز السماع والطرب- كما شاع عن أهل العراق فيما بعد شرب الخمر- حتى قال الشاعر :-

رأيه فى السماع رأى حجازى ∴ وفى الشراب رأى أهل العراق

أى أن القائل- والمتمثل- يحب السماع ويجيزه كرأى أهل الحجاز، ويحب الشراب ويحله كرأى أهل العراق.

وفى عهد عمر بن الخطاب هجا الشاعر الحطيئة بعض المسلمين فسجنه عمر ثم اشترى منه أعراض المسلمين بأن يكف عن هجائهم لقاء صدقة جارية[٢٣]. وفى العهد الأموى إذا بالشاعر القرشى عمر بن أبى ربيعة [٢٤] (المتوفى سنة ٩٣ هـ) يتعرض لفضليات القرشيات ويشبب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان الخليفة، وعائشه بنت طلحة، ولبانة بنت عبدالله بن عباس، وسكينة بنت الحسين بن على، والثريا بنت على بن عبد الله الحارس، ورفلة بنت عبد الله بن خلف (أخت طلحة الطلحات). ونظرا لجزاله شعر عمر بن أبى ربيعة وسهولته فقد جرى على كل الألسن فأشاع الفحش وهتك الآداب وعرّى الحرمات حتى قال ابن جريج: ما دَخَل العواتق فى حجالهن شئ أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة. وقال هشام بن عروة : لا تروا فتيانكم شعر عمر بن أبى ربيعة لئلا يتورطوا فى الزنا تورطا.

وشُهر الفسق والفجور عن بعض الخلفاء أنفسهم. فقد عرف عن يزيد بن معاوية أنه كان يشرب الخمر ويلعب بالكلاب ويجاهر بالفسق والتهاون بالدين.

عندما ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان قدم عليه أربعون رجلا من مشايخ دمشق وحلفوا له أن ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة؛ فسدر فى لهوه، حتى اختلى بجارية له فى عزلة عن الناس جميعا، وعن شواغل الحكم؛ وإذ ماتت من شرقة إثر وقوف حبة فاكهة (عنب أو رمان) فى حنجرتها، ذهب عقله ومات كمدا عليها بعد أسبوعين من وفاتها.

وكان الوليد الثانى يتظاهر (أى لايخفى) الزندقة، منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو، وشهر باللواط. وكان شاعرا مطبوعا مولدا للمعانى والأفكار والتعبيرات حتى ليقال إن أبا نواس (الحسن بن هانىء) نقل عنه أكثر أغراضه ومعانيه.

وعندما بُشّر الوليد بالخلافة وأتاه القضيب والخاتم قال :-

طاب يومى ولذ شرب السلافه ∴ وأتانا نعى من بالرصافة

وأتانا البريد ينعى هشاما ∴ وأتانا بخاتم الخلافة

فأصطبحنا من خمر عانة صرفا ∴ ولهونا بقينة عرّافة

وأقسم ألا يغادر مكانه حتى يُغَنّى هذا الشعر، فحدث.

ويقول الوليد خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وإمام المتقين :-

أدنيا منى خليلى ∴ «عَبْدَلاً» دون الإزار

فلقد أيقنت أنى ∴ غير مبعوث لنار

واتركا من يطلب الجنة ∴ يسعى فى خسار

سأروض الناس حتى ∴ يركبوا **دين الحمار**

ويقول :-

أنا الإمام الوليد مفتخرا ∴ أجر بردى، وأسمع الغزلا

ما العيش الاسماع محسنه ∴ وقهوة [٢٥] تترك الفتى ثملا

اسحب ذيلى إلى منازلها ∴ ولا أبالى من لام أو عذلا

لا أرتجى الحور فى الخلود، وهل ∴ يأمل حور الجنان من عقلا؟

إذا حبتك الوصال غانية ∴ فجازها بذلها، كمن وصلا

وقيل إنه عندما أحيط به دخل القصر وأغلق أبوابه وأنشد يقول :-

دعوا لى «هندا» و«الرباب» و«فرتنى» ∴ ومُسْمعة، حسبى بذلك مالا

خذوا ملككم، ولاثبت الله ملككمُ ∴ فليس يساوى بعد ذاك عقالا

وخلوا سبيلى قبل عير وما جرى [٢٦] ∴ ولا تحسدونى أن أموت هزالا [٢٧]

والوليد هذا- الذى يقال إنه خليفة الله- حاول أن يضع له مقصفا على الكعبة ويشرب فيه الخمر هو ورفاقه، لولا أن نُصح ألا يفعل. كما قيل- فى وصف انحلاله- إنه راود أخاه عن نفسه.

وبعد مقتله- لاقبل ذلك أبدا - قال حمزة بن بيض الشاعر عنه :-

ياوليد الخنا تركت الطريقا ∴ واضحا وارتكبت فجا عميقا

وتماديت واعتديت وأسرفـ ∴ ـت وأغويت وانبعثت فسوقا

أبدا هات ثم هات وهاتى ∴ ثم هاتى حتى تخر صعيقا

أنت سكران ماتفيق مما تر ∴ تق نتفا وقد فتقت فتوقا

والوليد - خليفة المسلمين (أو خليفة الله كما يقال) وأمير المؤمنين وإمام المتقين وحامى حمى الإسلام ورافع لواء الشريعة ، أنكر نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقال:

تلعب بالنبوة هاشمى ∴ بلا خبر أتاه ولاكتاب

وحدث مرة أن استفتح بالمصحف فظهرت له آية «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» فمزق المصحف ضربا بالسهام، وهو يسبح فى حوض من الخمر ، ويقول:

أتوعد كل جبار عنيد ∴ فهأنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر ∴ فقل يارب مزقنى الوليد

وحدث أن واقع جارية له وهو سكران ، وجاء المؤذنون يؤذنون للصلاة فحلف ألا يصلى بالناس إلا هى ، فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهى جنب سكرى.

وفى عهد الوليد بن عبد الملك كان والى مصر قرة بن شريك العبسى، وكان ظلوما غشوما عسوفا، وكان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر (جامع عمرو بن العاص)

وفى عهد سليمان بن عبد الملك كثر المخنثون فى المدينة فأرسل سليمان إلى أبى بكر محمد بن عمرو الأنصارى وإلى المدينة كتابا يقول له فيه «إحص المخنثين» فوقعت نقطة على الحاء فأصبحت «اخص المخنثين» ومن ثم فقد خصى الوالى كل المخنثين. وكلمة «احص» «والاحصاء» تفيد أن المخنثين آنذاك كانوا كثرة تقتضى الإحصاء، ولم يكونوا قلة لا يبالى بها أحد.

وكان خلفاء بنى أمية عموما لايعبأون بالصلاة، ويؤخرونها حتى آخر وقتها، إلى أن عدل عن ذلك سليمان بن عبد الملك.

وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس ودعا الناس الى زيارتها بدلا من زيارة الكعبة، فصرف الناس عن أداء الحج - وهو ركن من أركان الإسلام - مخافة أن يقابلهم فى مكة عبد الله بن الزبير فيأخذ منهم البيعة له. وكان الناس يوم عرفة يقفون بقبة الصخرة إلى أن قتل عبد الله بن الزبير.

* * *

وهكذا فى عز الخلافة الأموية وفى ضحى التاريخ الإسلامى كان الفسق كثيرا والفجور سافرا يقع فى قصور الخلفاء ويحدث بين صفوف المسلمين ، فكانت الخمر والغناء واللواط والتخنث والتشبيب بالنساء. وحدث مالايمكن أن يحدث فى وقتنا الحالى أن تصلى جارية مخمورة بالمسلمين بدلا من الخليفة، وأن يجاهر الخلفاء بالزندقة والفسق والفجور، وأن يُصرف

الناس عن الحج، وأن يشرع أمير المؤمنين فى وضع مقصف له فوق الكعبة يلهو ويسكر ويتلوط فيه، وأن يعلن هذا الخليفة أنه لادين ولاوحى ولاشريعة.

فأين كل ذلك مما يحدث اليوم ، ويقال اليوم، على أى مستوى يكون القول أو الفعل!؟

العنصرية

يقول الجاحظ (عمرو بن بحر ٧٧٥ - ٨٦٨م) إن دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية[٢٨].

ومايقوله الجاحظ عن دولة بنى مروان خاصة - أو الخلافة الأموية عامة - يدل دلالة واضحة على أن الدولة الأموية لم تقم على أسس إسلامية ، بل قبلية ؛ ولم ترتفع على عمد دينية، بل عنصرية . فالإسلام دين عام شامل لايقتصر على جماعة ولايميز قبيلة ولايمالىء أسرة ، وهو يدعو الى المساواة بين جميع البشر. وفى القرآن : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (سورة الحجرات ٤٩: ١٣). والشعب لغة هو القبيلة العظيمة، وقيل الحى العظيم يتشعب من القبيلة، وقيل هو القبيلة نفسها، والجمع شعوب. والقبيل هو الجماعة من الناس يكونون ثلاثة فصاعدا من قوم شتى. والقبائل هى البطون، بطون العرب.[٢٩] ومع أن لفظ الشعب فى الآية المنوه عنها لايعنى الشعب بالمعنى السياسى المعاصر، إلا أن مفهوم الآية القرآنية ، وسياق القرآن كله، يفيد المساواة بين جميع الناس بحيث لايتميز أحد عن أحد بسبب قبلى أو عنصرى.

ولأن الإسلام نزل على العرب أولا، وبلغة عربية غير أعجمية ، فقد صار العرب المسلمون يرون أنهم حماة الإسلام وحملة الدين القويم وهداة الشعوب الضالة. وإثر فتح فارس ومصر والشام تجذّر لديهم الإحساس بالتفوق والاستعلاء . وبعد عهد الخلفاء الراشدين ، وقيام الدولة الأموية ، تملك القوم شعور بالسيادة والعظمة والتعالى فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود والمالك إلى العبيد؛ وتأسس الحكم الأموى على هذا الاعتقاد الخاطىء والمفهوم الفاسد.

بهذا قامت الدولة الأموية على عنصرين : العنصر العربى من جانب ، والموالى من جانب آخر. والموالى هم كل شخص غير عربى وإن كان مسلما عليه أن يتولى ، أى أن يتخذ له مولى من العرب حتى يحميه ويسانده . بذلك كانت الدولة عنصرية تسوّد العنصر العربى وتستذل أو تضطهد الموالى من غير العرب.

وقد بدأ ذلك بالحديث الذى يقول «الأئمة من قريش» ثم شرع هذا المبدأ يُصاغ فى الشعر ويجرى فى القول ويفعل فى السياسة ويحكم فى الادارة.

فهذا كثير عزة يقول :

ألا إن الأئمة من قريش ∴ ولاة الحق أربعة سواء

ولم يقتصر معنى الأئمة - فى العمل السياسى والحكم الإدارى - على معنى الإمامة العظمى أو رياسة الدولة ، بل إنه امتد الى جميع الولايات والإمامات والرياسات والوظائف فحُظرت ولاية القضاء وإمامة المصلين ورياسة الناس على غير العرب. وكانت العرب ، حتى زوال الدولة الأموية ، تسير على أسلوب معين، فإذا أقبل العربى من السوق ومعه شىء ورأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه، فلايمتنع المولى ولايغير عليه السلطان (أى لايحميه) . وإذا لقى العربى مولى راكبا وأراده أن ينزل فعل المولى. وإذا رغب أحد فى تزوج مولاة خطبها الى مولاها العربى (الذى يتولى حماية أسرتها) دون أبيها أو جدها.

وغالت بنو أمية فصارت لاتستخلف بنى الإماء حتى ولو كانوا عربا. وقالوا فى ذلك: لاتصلح لهم العرب. ويعلل الأصمعى هذا المسلك بقوله: إن الامتناع عن تولية بنى الإماء (أولاد الجوارى) كان للاستهانة بهم. وذهب البعض الى أكثر من ذلك فمنع توريث الهجناء (أولاد الجوارى) خلافا لنص القرآن.

وقال المختار لابراهيم بن الأشتر فى معركة : إن عامة من عندك من هؤلاء الحُمْراء (أى الموالى) وإن الحرب إن ضَرستهم هربوا ، فأحمل العرب على متون الخيل، وأرْجل الحمراء أمامهم» فصار الموالى راجلين والعرب راكبين.

ورُوى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فشكوا ذلك إلى والى المدينة ، فأرسل الوالى إلى المولى وفرق بينه وبين زوجه وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. وقيل فى مدح الوالى الذى فعل ذلك:

قضيت بسنة وحكمت عدلا ∴ ولم ترث الحكومة من بعيد

وفى المائين للمولى نكال ∴ وفى سلب الحواجب والخدود

فأى الحق أصهر للموالى ∴ من اصهار العبيد إلى العبيد

وعلى ماسلف فإن الشعر تضمن الشعور ضد الموالى والهجناء (أولاد الجوارى) فهذا شاعر يقول:

إن أولاد السرارى ∴ كثروا يارب فينا

رب أدخلنى بلادا ∴ لا أرى فيها هجينا

وقال الشاعر جرير يهجو الموالى:

يامالك بن طريف : إن بيعكمُ ∴ رفد القرى، مفسد للدين والحسب

قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم ∴ بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

وقال المبرد: إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم وأنزل من قدرهم.

وزاد الطين بلة، وسوءا على سوء، أن الدولة فرضت الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وكان قراء البصرة يبكون لذلك[٣٠] حتى وُلى الخلافة عمر بن عبد العزيز فرفع الجزية عمن أسلم، فلما قيل له إن موارد بيت المال سوف تنقص ، قال: إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أرسل هادبا ولم يرسل جابيا.

وهذا الاستعلاء المتوالى من جانب العرب والاستذلال المتتالى للموالى ، دعا بعض هؤلاء لا إلى مجرد طلب الولاء العربي، بل إلى ادعاء النسب العربى كذلك. فأبو مسلم الخراسانى الذى قوّض الدولة الأموية ادعى لنفسه نسبا عربيا . واسحاق الموصلى المغنى مضى إلى عربى يدعى خازيم بن خزيمة فتولاه (أى طلب اسحق أن يكون مولى له).

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

يـــروح بنسبة المولـــى ∴ ويصبح يدعى العـــربا
فـلا هذا، ولا هـــــذا ∴ ك يدركـه إذا طلـــبا
يشـم الشيخ والقيصوم ∴ كى يستوجب النســـبا
فصـــار تشبهـا بالقـو ∴ م جلفـا، جافيا، جشبا

وادعى والبة بن الحباب نسبا الى العرب فقال فيه أبو العتاهية:

أوالب أنت فى العـرب ∴ كمثل الشيص فى الرطب
هلم إلى الموالى الصـــ ∴ يـد فى سعة وفى رحـب
فأنت بنا لعمر اللـــ ∴ ـه أشبه منك بالعـربى

وقال بشار بن برد فى رجل ادعى نسبته إلى عرب:

إن عمـــروا فاعـرفوه ∴ عـــربى مـن زجـــاج
مظلـم النســبة لا يُعـ ∴ ـــرف إلا بالســـراج

وكان ولابد مع الاعتزاز المبالغ فيه بالعنصر العربى ، ومحاولة بعض الموالى نسبة أنفسهم إلى العرب ، أن يحدث رد فعل آخر مبالغ فيه أيضا من العنصر الأعجمى ، وبخاصة الفرس الذين رأوا أنهم أعرق نسبا وأبعد حضارة وأبلغ مدنية وأرق طباعا من العرب أنفسهم ؛ وبذلك لم تعد دولة الإسلام أمة موحدة بل جماعات متفرقة متعددة متحزبة متعارضة، تشتتها القومية وتبددها الشعوبية.

وفى هجاء العرب، والانتصار للموالى، يقول الشاعر مخاطبا العربى:

أحين كُسيت - بعد العرى - خزا ∴ ونادمت الكرام على العقار[٣١]
تفاخـــر يا ابـــن راعـــية وراع ∴ بنى الأحرار ، حسبك من خسـار

تريغ بخطبة كسر الموالى ∴ وينسيك المكارم صيد فار
وكنت إذا ظمئت الى قراح ∴ شركت الكلب فى ولغ الإطار

وقد ظلت هذه النعرة الجاهلية بين العرب والعجم ، بين السادة والعبيد ، تشتد وتقوى على هذا الجانب وذاك، حتى تجمع الموالى حول أبى مسلم الخراسانى (وهو مولى) وكانوا من أهم العوامل لتقويض الدولة الأموية التى كانت - كما يقول الجاحظ - عربية اعرابية، أى عربية بدوية أو عربية بُدائية أو عربية جاهلية.

ودولة تقوم على هذا الأساس الفاسد والعماد الخاطىء ، وتتنكب أهم مبادىء الإسلام فى المساواة بين الناس عامة والمكافأة بين المؤمنين خاصة، دولة غير إسلامية ، وإن ادعت الإسلام تخابثا به، أو زعمت الإيمان تعابثا به.

الحجاج والقرآن

الحجاج بن يوسف الثقفى (٦٦٠ - ٧١٤ م) كان معلما - بالطائف - للغة العربية، ثم انتقل الى صفوف الجند، وصار أهم عُمال عبد الملك بن مروان ثم ابنه الوليد بن عبد الملك. وكان هو ثانى من رمى الكعبة بالمنجنيق فى حصاره لعبد الله بن الزبير، ثم قتله فقضى على خلافته، ووطأ المنابر كما مهّد الطرق للمروانية (عبد الملك والوليد) واشتهر بالقسوة والظلم والعسف حتى صار علما فى ذلك.

ولأنه مدرس لغة عربية فقد تدخل فى مصحف عثمان وغير أحد عشر حرفا هى :[٣٢]

١ - «لم يتسن وانظر» سورة البقرة ٢ : ٢٥٩ جعلها «لم يتسنه» بالهاء.
٢ - «شريعة ومنهاجا» سورة المائدة ٥ : ٤٨ جعلها «شرعة ومنهاجا».
٣ - هو الذى ينُشركم» سورة يونس ١٠ : ٢٢ جعلها «يسيركم».
٤ - «أنا آتيكم بتأويله» سورة يوسف ١٢ : ٤٥ جعلها «أنا أنبئكم بتأويله».
٥ - «سيقولون لله لله» سورة المؤمنون ٢٣ : ٨٥ جعلها «سيقولون الله الله».
٦ - «من المخرجين» سورة الشعراء ٢٦ : ١١٦ جعلها «من المرجومين»
٧ - «من المرجومين» سورة الشعراء ٢٦ : ١٦٧ جعلها «من المخْرجين».
٨ - «نحن قسمنا بينهم معايشهم» سورة الزخرف ٤٣ : ٣٢ جعلها «معيشتهم».
٩ - «من ماء غير ياسن» سورة محمد ٤٧ : ١٥ جعلها «غير آسن»
١٠ - «فالذين آمنوا منكم واتقوا» سورة الحديد ٥٧:٧ جعلها «وانفقوا»
١١ - «وماهو على الغيب بظنين» سورة الشمس (التكوير) ٨١ : ٢٤ جعلها «بضنين».

ولو أن الأمويين كانوا يقدسون القرآن الكريم شأن المسلمين ، ويقدرون السلف الصالح كحال المؤمنين ، لما تركوا الحجاج - أهم عمّالهم - يغيّر فى القرآن ، ولو لفظا واحدا، حتى وإن كان

خطأ من النساخ. فلقد سبق أن سمعت عائشة زوج النبى بعض أخطاء فى كتابة القرآن الكريم فلم ترفعها ولم تُشر بذلك وإنما قالت إنها واثقة أن المسلمين سيقومونها بألسنتهم.

والذى يدلل على أن الحجاج قصد إظهار جراءته على القرآن ليس إلا ، أنه لازالت توجد حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية - لابد أن تكون قد وقعت من النساخ - ولم يصححها الحجاج ، كما لم يجرؤ أحد على تقويمها إلى اليوم. من هذه - على سبيل المثال:

١ - «إن هذان لساحران» (سورة طه ٢٠ : ٦٣) بدلا من «إن هذين لساحرين»

٢ - «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » (سورة المائدة ٥: ٦٩) بدلا من «الصابئين».

٣ - «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» (سورة المائدة ٥: ٣٨) بدلا من يديهما»[٣٣]

الفـــرق

يتميز التاريخ الإسلامية بخاصية معينة ، تظهر فى التاريخ البشرى عمومًا ، لكن ليس بمثل ظهورها وبروزها فى التاريخ الإسلامى، هى قيام الحركات السياسية أولا ثم ظهور الفرق والتيارات والمذاهب بعد ذلك ، حول الحركة التى ظهرت ابتداء ، وبقصد تبريرها أو تسويغها أو تثبيتها. وربما كانت علة وضوح هذه الخاصية فى التاريخ الإسلامى أن هذا التاريخ محكوم ببعض العوامل التى بدأت منذ ماقبل الإسلام، فى العهد الجاهلى، حين كانت جل تصرفات العرب الجاهلية آنذاك حركات بلا فكر، وتصرفات دون مذهب، وردودا بغير أى اعتقاد. فلما جاء الإسلام لم تكن هذه العوامل قد انتهت وزال كل أثر لها فاستمرت فاعليتها مع الأحداث، وخاصة أن تداخل السياسة مع الإسلام فاجأ المسلمين بانشقاقات سياسية وحركات حزبية وتصرفات جاهلية ، منذ الفترة الأولى (فى النصف الثانى من عهد عثمان بن عفان، وقبل مرور عشرين عاما على وفاة النبى) وكانت المفاجأة من قبل أن يتكامل للمسلمين فكر أو تتحدد لهم مذاهب أو ينبنى لهم فقه، فأدى ذلك الى تأثر كل اتجاهاتهم الفكرية بالحركات السياسية ؛ بالخلافة من جانب حزب الخليفة ، وبطلاب الخلافة من جانب حزب المعارضة ، فالحركة السياسية تبدأ لتأييد موقف أو تحبيذ اتجاه أو تعزيز حاكم ثم يلتف الفكر حول الحركة فيلتصق بها ويُؤثر فيها ويختلط معها، فإذا به مجرد تبرير للموقف أو تسويغ للاتجاه أو تقديس للحاكم أو المطالب بالحكم.

بهذا نشأت أهم الفرق فى بواكير التاريخ الإسلامى، ومن أبرزها : الخوارج، والشيعة ، وجماعة المتكلمين.

أ) فالخوارج نشأوا أصلا كاحتجاج على موقف على بن أبى طالب من التحكيم على الخلافة ، ثم كغضبة مما أحدثه الصراع على الخلافة بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى

سفيان من فُرقة بين المسلمين وحروب بين المؤمنين. وبعد ذلك صار الخوارج فرقة تشعبت الى فرق كثيرة ، ونشأ لها اتجاه فكرى كان أساس المذهب الحربى فى الإسلام. ويظهر هذا المذهب فى عدة عناصر أهمها: حاكمية الله، وتحريف معانى القرآن الكريم، وتكفير الأمة الإسلامية، هذا فضلا عن العدمية والفوضوية.

فقد رفع الخوارج فى وجة على بن أبى طالب شعار «لاحكم إلا لله» وهو شعار مأخوذ عن الآية «إن الحكم إلا لله» (سورة الأنعام ٦: ٥٧، سورة يوسف ١٢: ٤٠، ٦٧) ثم شرعوا فى استعمال الآيات «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. الظالمون .. الفاسقون» (سورة المائدة ٥: ٤٤- ٤٥- ٤٧) لوصم كل الحكام وكل الخصوم بالكفر، على اعتبار أنهم لايحكمون بما أنزل الله، وأن الخوارج وحدهم هم الذين يحكمون بما أنزل الله.

وفكرة حاكمية الله أو تكفير من لم يحكم بما أنزل فكرة براقة لكنها غير صحيحة، تصدر عن نفوس مشحونة بالعواطف الفائرة ولا تخلص من عقول راجحة مركوزة على التفكير ، ذلك أن الحكم لله بالإطلاق ، لكنه للناس بالفعل ؛ ولو لم يكن الفرد - حاكما أو محكوما - مسئولا عن فعله لما كان ثم سبيل للمساءلة الدنيوية أو المحاسبة الأخروية ! فمادام الله هو الذى يحكم ويفعل فماهو أساس مسئولية الحاكم أو الفرد إذن!؟

واستعمال الآيات «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون... الظالمون... الفاسقون» على النحو الذى استعملها به الخوارج- أو يستعملها غيرهم - تحريف لمعانى القرآن ، باستعمال آيات فى غير الغرض الذى تغياه التنزيل، واستخدام آيات أنزلت فى غير المسلمين ليوصف بها المسلمون. وهذا الأسلوب الذى اتبعه الخوارج صار أساس القاعدة الفقهية التى نشأت فيما بعد والتى ترى أن «العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب»، والتى تتأدى فى أن آيات القرآن الكريم لاتفسر بعد معرفة أسباب تنزيلها ولكن بمجرد عموم ألفاظها. ونتيجة تفسير آيات القرآن على عموم اللفظ، بعد اطراح سبب التنزيل ، أن تجتث الآيات من السياق القرآنى وتُقتطع من تاريخ التنزيل وتُطلق على أشياء لم تنزل بسببها أو واقعات لم تقصدها إطلاقا أو أوضاع لاترمى إليها أبدا. وبذلك يكون الخوارج قد بدأوا الطريق فى تحريف معانى القرآن الكريم، ثم تلقف غيرهم هذا الأسلوب ، لاعتبارات سياسية غالبا، ثم فقهُوه وقننوه فى القاعدة السالف بيانها فأثر ذلك تأثيرا سيئا جدا على العقل الإسلامى والفهم الشرعى والتاريخ الإسلامى.

وعادى الخوارج الأمة الإسلامية كلها ، واعتبروها كافرة ، لأنها لم تخرج على الحكام كما خرجوا هم، ولم تهجر الجماعة إليهم هم. وبذا بذر الخوارج بذار فتن لم تزل قائمة ومستمرة وفعالة حتى اليوم.

يضاف الى ذلك أن الخوارج جوّزوا ألا يكون للأمة خليفة أو إمام ، كما أجازوا لكل فرد -

نتيجة عدم وجود حكومة - أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، من تلقاء نفسه وبما يتراءى له. وبهذا وُضعت أسس الفوضوية والعدمية فى المجتمع الإسلامى والشخصية الإسلامية.

ب) أما الشيعة ، فقد نشأوا - على ماسلف - للمطالبة بأحقية أولاد على بن أبى طالب الحسن والحسين - ثم ذريتهما - بالخلافة . ونتج عن هذا الاتجاه السياسى اتجاه دينى كامل ، ومذاهب فقهية متعددة؛ هى الاتجاه الشيعى - الذى يخالف السنة ويجانب فقهها فى أشياء كثيرة - والمذاهب الإمامية (الجعفرية) والزيدية والإسماعيلية.. وغيرها.

جـ) ونتيجة لموقف المسلمين من أصحاب الشرائع الأخرى وبخاصة اليهود والمسيحيين ، فقد دخل هؤلاء الى الإسلام بفلسفاتهم ومسائلهم الفكرية وحواراتهم الجدلية ، وبخاصة مسألة خلق «كلمة الله» (المسيح أو التوراة) ، ومن ثم أثيرت مسألة خلق القرآن (كلام الله) وهى المسألة التى ذُبح بسببها الجعد بن درهم - كما سلف البيان - والتى صارت فيما بعد جزءا من صميم العقيدة ، وخاصة فى العصر العباسى ، وفى عهد الخليفة المأمون بالذات.

فالفرق ، والحركات ، وكثير من المذاهب ، نشأ فى الإسلام نتيجة للسياسة وأثرا للتحزب ، وكان المحرك لها جميعا منصب الخليفة أو مركز الخلافة. فالمؤيدون لفريق فى جانب والمعارضون لهم فى جانب آخر، وبين الأثنين جماعة ثالثة.. وهكذا توالى التاريخ ، والحركة الأساسية له تكمن فى الخلافة الإسلامية.

هوامش وتعليقات

١ - المراجع المشار إليها فى الفصول السابقة.
٢ - ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الأول - ص ٢٧٦.
٣ - المرجع السابق - ص ٢٦٢.
٤ - الطبرى - المرجع السابق - الجزء الرابع ص ٢٠٧.
٥ - ابن خلدون - المقدمة - المرجع السابق ص ٣٦٠.
٦ - يراجع ماسلف فى الفصل السابق.
٧ - ابن خلدون المرجع السابق - ص٣٦٨.
٨ - كان على بن أبى طالب قد حمل على عائشة أيام حديث الإفك ولم يصدق روايتها ونصح النبى بطلاقها حتى نزلت الآية القرآنية التى تبرىء عائشة. وقد صار ثم عداء بين على وعائشة ، أو اشتد بينهما، وظل متصلا لايهدأ حتى إذا ما علمت عائشة بمقتل على قالت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ∴ كما قرَّ عينا بالإياب المسافر

تقصد من ذلك أن عليا بموته قد أراح واستراح. ولما راجعتها إحداهن فى ذلك القول عن علىّ بعد مقتله، رددت عائشة قول الشاعر عمن نعاه:

فإن يك نائيا فلقد نعاه ∴ نعىٌ ليس فى فيه تراب

وكأنها بذلك تمتدح من نعى عليا بن أبى طالب.
٩ - بايع معاوية أهل الشام واختلف أهل العراق حتى صالحه الحسن بن على فأجمع الناس على بيعته فى جمادى الأولى سنة ٤٢ هـ (٦٦٢م).
١٠ - ابن عبد ربه - العقد الفريد - الجزء الثانى - ص٣٠٧. وقد علق معاوية على خطبة المغيرة قائلا: اجلس فأنت سيد الخطباء
١١- فى العملات الإسلامية الموجودة بالمتحف البريطانى ثلاث عملات لثلاثة خلفاء نقشت عليها عبارة خليفة الله، وهى على التوالى لعبد الملك بن مروان والمأمون والخليفة الناصر.
١٢ - السيوطى - تاريخ الخلفاء - ص٢١٧.
١٣ - ابن خلدون المرجع السابق - ص ٣٦٩.
١٤ - وُجدت بجثة الحسين ٣٣ طعنة ، ٣٤ ضربة غير الرمية.
١٥ - عباس محمود العقاد - الأعمال الكاملة - أبو الشهداء.
١٦ - وبعد وفاة يزيد بن معاوية التقى ابن الحصين بعبد الله بن الزبير فى الكعبة فعرض عليه أن يبايعه للخلافة على أن يسير معه إلى دمشق لمبايعته، فأبى ذلك عبد الله بن الزبير، وكان رفضه بصوت عال بعد أن كان حديث ابن الحصين إليه خافتا، فرد عليه هذا بقوله، انك لأحمق العرب، أأدعوك إلى الخلافة فتدعونى إلى الحرب.

١٧ - الطبرى - المرجع السابق - الجزء الخامس صفحة ٢٣٤ ، ٢٣٥.

١٨ - المرجع السابق صفحة ٢٥٦، ٢٥٧: وقد زعم زاعم أن شخصا دخل على معاوية بن أبى سفيان وقال له «السلام عليك أيها الأجير» ثم وصل من هذا القول الهازل الى استنتاج عابث مؤداه أن الخليفة فى العهد الأموى ، وفى كل العهود ، كان أجيرا للمحكومين . ومن هذا الوهم استخلص البعض نظرية تتأدى فى أن الحاكم فى تاريخ الإسلام كان أجيرا للمحكومين (هكذا!!!) . وعلى هؤلاء جميعا ترد قصة جحر بن عدى وحدها دون غيرها، فقد قال لمعاوية «السلام عليك أيها الأمير» ومع ذلك قتل صبرا (أى بالحبس والرمى حتى الموت) دون اتهام أو دفاع أو محاكمة أو تسبيب، وبأمر اعترف الخليفة أنه تم دون رشد.. وهكذا يكون الأجـير!

١٩ - كان عقبة بن أبى مُعَيْط صديقا للنبى (صلى الله عليه وسلم)أثناء أن كان فى مكة ، وبتحريض من خصم للنبى بصق عليه وقاطعه.. وعندما أسر فى موقعة بدر أمر النبى (صلى الله عليه وسلم) بقتله صبرا، وقبل أن يموت قال عقبة للنبى: ومن للأولاد يامحمد!؟ قال: لهم النار. ومن هؤلاء الأولاد الذين قال النبى إن النار لهم الوليد بن عقبة الذى ولاه عثمان بن عفان إمارة البصرة فصلى الفجر بالناس وهو مخمور فزاد فى عدد الركعات والسجدات، فلما نبهه الناس التفت اليهم وقال: هلا زدتكم!!

٢٠- الوافى - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ١٠٠٠ .

٢١ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - المرجع السابق - الجزء الأول صفحة ٣٣٤.

٢٢ - ابن خلدون - المقدمةُ المرجع السابق - ص ٣٦٢.

٢٣ - وهو فى الحبس أرسل الحطيئة الى عمر يستعطفه فقال:

ماذا تقول لأطفال بذى مـــرخ ∴ زغب الحواصل لاماء ولاشجر

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ∴ فاغفر عليك سلام الله ياعمر

وإلى ما بعد وفاة عمر بفترة كان الحطيئة يخشاه، فإذا ذكر ترحم عليه.

٢٤ - عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة من مخزوم بطن من قريش، وكانت العرب تنكر الشعر على قريش فلما ظهر عمر بن أبى ربيعة اعترفوا لها بالتفوق فى الشعر!!!

٢٥ - القهوة هى الخمر.

٢٦ - أى فى الحال.

٢٧ - رسالة الغفران - المرجع السابق - صفحة ٢٣٦ ومابعدها.

٢٨ - الجاحظ - البيان والتبيين ٣ : ٢٠٦.

٢٩ - لسان العرب : مادة: شعب، قبيلة.

٣٠ - أبو يوسف - الخراج ، أحمد أمين - المرجع السابق صفحة ٣٦٣

٣٢ - العقار: الخمر

٣٢ - أبو بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعب السجستانى - كتاب المصاحف - دار الكتب العلمية - بيـروت لبـنان - الطبعـة الأولى - صفحة ١٣٠، ابراهيم الإبيارى - الموسوعة القرآنية - الجزء الأول - ص ٣٦١ ومابعدها.

٣٣ - القرطبى - المرجع السابق. ويرى بعض اللغويين أن ماورد فى كتابة مصحف عثمان صحيح لغوياً، وقدموا دلائل لغوية على ذلك، الموسوعة القرآنية - المرجع السابق - ص ٣٥٨ ومابعدها.

ثبت الخلفاء

	هجرية	ميلادية
١- السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد	١٣٢	٧٥٠
٢- المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد	١٣٦	٧٥٤
٣- المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور	١٥٨	٧٧٥
٤- الهادى أبو محمد موسى بن المهدى	١٦٩	٧٨٥
٥- الرشيد أبو جعفر هارون بن المهدى	١٧٠	٧٨٦
٦- الأمين أبو موسى محمد بن الرشيد	١٩٨	٨١٣
٧- المأمون أبو جعفر عبد الله بن الرشيد	١٩٨	٨١٣
٨- المعتصم بالله أبو اسحاق محمد بن الرشيد	٢١٨	٨٣٣
٩- الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم	٢٢٧	٨٤٢
١٠- المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم	٢٣٢	٨٤٧
١١- المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل	٢٤٧	٨٦١
١٢- المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم	٢٤٨	٨٦٢
١٣- المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل	٢٥٢	٨٦٦
١٤- المهتدى بالله أبو اسحاق محمد بن الواثق	٢٥٥	٨٦٩
١٥- المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل	٢٥٦	٨٧٠
١٦- المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق	٢٧٩	٨٩٢
١٧- المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد	٢٨٩	٩٠٢
١٨- المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد	٢٩٥	٩٠٨
١٩- القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد	٣٢٠	٩٣٢
٢٠- الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر	٣٢٢	٩٣٤
٢١- المتقى بالله أبو اسحاق ابراهيم بن المقتدر	٣٢٩	٩٤٠
٢٢- المستكفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى	٣٣٣	٩٤٤
٢٣- المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر	٣٣٤	٩٤٦
٢٤- الطائع لله أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع	٣٦٣	٩٤٧

٢٥- القادر بالله أبو العباس أحمد بن اسحاق المقتدر	٣٨١	٩٩١
٢٦- القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله	٤٢٢	١٠٣١
٢٧- المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن محمد	٤٦٧	١٠٧٥
٢٨- المستظهر بالله أبو العباس أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
٢٩- المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر	٥١١	١١١٧
٣٠- الراشد بالله أبو منصور جعفر	٥٢٩	١١٣٤
٣١- المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر	٥٣٠	١١٣٥
٣٢- المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى	٥٥٥	١١٦٠
٣٣- المستضئ بنور الله أبو الحسن على بن المستنجد	٥٦٦	١١٧٠
٣٤- الناصر لدين الله أبو العباس أحمد	٥٧٥	١١٧٩
٣٥- الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر	٦٢٢	١٢٢٥
٣٦- المستنصر بالله أبو جعفر المنصور	٦٢٣	١٢٢٦
٣٧- المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله	٦٤٠	١٢٤٢

الخلافة العباسية فى مصر

٣٨- المستنصر بالله أبو القاسم أحمد (الأسود)	٦٥٩	١٢٦٠
٣٩- الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستظهر	٦٦١	١٢٦٢
٤٠- المستكفى بالله أبو الربيع سليمان	٧٠١	١٣٠١
٤١- المستمسك بالله ابراهيم الواثق	٧٤٦	١٣٤٥
٤٢- الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى	٧٤٦	١٣٤٥
٤٣- المعتضد بالله أبو الفتح بن أبى بكر المستكفى	٧٥٣	١٣٥٢
٤٤- المتوكل على الله أبو عبد الله محمد	٧٦٣	١٣٦١
٤٥- المستعين بالله أبو الفضل بن المتوكل	٨٠٨	١٤٠٥
٤٦- المعتضد بالله أبو الفتح داود	٨١٦	١٤١٣
٤٧- المستكفى بالله أبو الربيع سليمان	٨٤٥	١٤٤١
٤٨- القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة	٨٥٤	١٤٥٠
٤٩- المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف	٨٥٩	١٤٥٤
٥٠- المتوكل على الله عبد العزيز أبو المعز يعقوب	٨٨٤	١٤٧٩
٥١- المستمسك بالله أبو صابر يعقوب	٩٠٣	١٤٩٧
٥٢- المتوكل على الله محمد بن المستمسك	٩٢٢	١٥١٦

تضافرت عوامل عدة لتقويض وإسقاط الخلافة (الدولة) الأموية واستبدال خلافة (دولة) أخرى بها من الهاشميين. وكانت أظهر هذه العوامل : المفاسد والمظالم، وغضب الموالى، وتطلع الهاشميين إلى الخلافة.

فالمفاسد والمظالم - خلال الدولة الأموية - كانت عامة كثيرة منتشرة؛ وكان المجتمع الاسلامى - حديث العهد - قريب عهد بها. فمنذ نشأت الخلافة الإسلامية لم يصادف هذا الكمّ الزاخر المتتالى من المفاسد والمظالم، فاعتقد المسلمون أن هذه وتلك خاصة بالخلافة الأموية وبنى أمية وبنى مروان وحدهم، وأنها تزول بزوالهم وتنقضى بانقضائهم، فيحل العدل والسلام والأمن والرخاء تلقائيا. ولم تكن الخلافة قد استطالت، وتعددت، وجرب المسلمون أنواعا متعددة، وأسَرّاً مختلفة، ودولا متغيرة، حتى يصلوا إلى النتيجة المؤكدة من أن المفاسد والمظالم هى اللحمة والسدى لكل حكومة شمولية، وكل نظام استبدادى؛ سواء كان مدنيا أم دينيا، بل إنها فى النظام الدينى أشد وأعتى.

وكانت الخلافة الأموية - على ماسلف - عربية أعرابية، أى عربية بدوية أو بدائية، فلم تستوعب روح الاسلام فى نشر الإخاء الإنسانى، ومن ثم تعالت بالعنصر العربى مما أدى إلى قيام تعال مقابل بالعناصر غير العربية من الموالى. ومع الوقت تجمع صوت الموالى فصار زئيرا، واشتدت قوتهم فأصبحت حربا، وتحددت أهدافهم فى القضاء المبرم على الخلافة الأموية.

وفى سبيل تقويض هذه الخلافة لتستبدل بها خلافة هاشمية، والى الهاشميون الثورة على الخلفاء الأمويين واحدا إثر واحد، فكانوا - بثوراتهم المتصلة - يجمعون حولهم وضمن معتقداتهم كل قوى المعارضة التى لم يكن أمامها سواهم، فرأت فيهم أملا محددا للخلاص وجبهة مركزة للعمل. وكان الهاشميون يرجعون كل مساوئ الخلافة الأموية إلى عدم الحكم بالشريعة، أو بشرع الله، أو بما أنزل الله؛ وهو اتجاه - وتعبير - بدأه الخوارج، كما أنف البيان، باستعمال خاطئ لآيات القرآن الكريم التى نزلت فى يهود المدينة ولا تخاطب أمة الإسلام، ثم والى الهاشميون استعماله، كشعار سياسى، فوصموا حكم الأمويين بأنه مخالف لشرع الله، ووعدوا بأن يحكموا - حكما دينيا - بما أنزل الله، فيما لو آلت إليهم الخلافة.

تلك هى أهم العوامل التى تضافرت لتقويض الخلافة الأموية، فلما اشتدت فى ذاتها أو بالتفاعل مع غيرها، وحان الوقت وساعدت الظروف، قام فى خراسان الفارسية أبو مسلم الخراسانى فقاد الثوار حتى قضى على الخلافة الأموية وأقام الخلافة العباسية.

والخلافة العباسية خلافة لبنى العباس وحدهم دون آل طالب، أى أنها اقتصرت على جزء من الهاشميين ولم تشملهم جميعا، مما دعا إلى الانشقاق فى صفوفهم إلى عباسيين يحكمون وطالبيين يعارضون.

وأول الخلفاء العباسيين أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى. وقد كان شابا دمويا، ولى الخلافة وعمره ثمانية وعشرون عاما (وقيل أربعة وعشرون وقيل اثنان وثلاثون) وحكم مدة أربع سنين وثمانية أشهر، وتوفى وعمره ثلاثة وثلاثون عاما. وعندما ولى الخلافة اعتلى المنبر وخطب الناس فقال "... الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله (صلعم) وقرابته، وأنشأنا من آبائنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته... «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» وقال تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» وقال : «وأنذر عشيرتك الأقربين» وقال : «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى» فأعلمهم... فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفئ والغنيمة نصيبا تكرمة لنا وفضلا علينا... وزعمت الشامية (أهل الشام) الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم... وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها... (ثم أضاف) : أنا السفاح المبيح والثائر المنيح... لكم منا ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذمة العباس.. أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله.. واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام... »!!

ومن هذه الخطبة الافتتاحية للخلافة العباسية يبين أن الهاشميين (قبل أن ينقسموا إلى عباسيين وطالبيين) كانوا يرون أنهم هم الأحق بالخلافة، وأن الخلافة الأموية كانت ابتزازا وظلما للناس؛ ثم أكدت الخطبة على صلة القرابة بين النبى وبين بنى العباس، بما يعنى أن السبب الأول والأوجب للخلافة هو قرابة الخلفاء للنبى، وهو سبب سوف يفصح عن معانى الإرث والوراثة. وجعلت الخطبة حقوق النبى (صلى الله عليه وسلم) فى الفئ والغنائم حقوقا للخلفاء كذلك، كما أكدت أن العطاء لهم والتودد إليهم هو القصد من القرآن الكريم.

ومع هذا التمثل بالقرآن، والتعلل بقرابة النبى، فقد وقع تحلل من كل قيمة أو مبدأ أو

حرمة؛ ذلك أن العباسيين بدأوا حكمهم بنبش قبور الخلفاء الأمويين، ثم القضاء على من بقى منهم فى مذبحة فظيعة.

فلقد نبش العباسيون قبر معاوية بن أبى سفيان فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد. ونبشوا قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته. ونبشوا قبور باقى الخلفاء فلم يجدوا إلا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنهم وجدوه صحيحا لم تبل منه إلا أرنبة أنفه فضربوه بالسياط وصلبوه وحرقوه وذروا الرماد فى الريح.

وتتبع أبو العباس بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذهم ولم يُفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل. وكان أبو العباس قد أمّن سليمان بن هشام بن عبد الملك وكبار القوم من الأمويين ثم دعاهم إلى مأدبة عشاء فدخل عليهم الشاعر سديف (الشريف) وقال له :-

لايغرنك ماترى من رجال ∴ إن تحت الضلوع داء دويّا

فضع السيف وارفع السوط حتى ∴ لاترى فوق وجهها أمويا

فأمر بهم السفاح (ويقال بل عمه عبد الله بن على) فضُربوا بالعُمُد حتى قتلوا، ثم بَسَطوا عليهم الأنطاع، وأكل هو الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى لفظوا الأنفاس جميعا.

وتلى السفاح فى الخلافة، بعهد منه، أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور، وهو المؤسس الفعلى للدولة العباسية. وقد افتتح خلافته بقتل عمه عبد الله بن على خوفا منه أن ينازعه الملك أو يشغب عليه فيه، ثم انقلب على أبى مسلم الخراسانى فقتله كذلك. ولما قال له هذا : استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك، قال المنصور : ... وأى عدو أعدى منك !؟

* * *

وخرج على أبى جعفر المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو الملقب بالنفس الزكية فأرسل إليه المنصور كتابا يقول فيه «... إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ... ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن أؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم...» فلما وصل الكتاب إلى محمد (النفس الزكية) رد على المنصور بكتاب يقول فيه «طسم تلك آيات الكتاب المبين... وأنا أعرض عليك الأمان بمثل ماعرضت على... إن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام **فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء**، ثم قد علمت أنه لم يطلب الأمر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا... فلسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة... أنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتنى من الأمان والعهد ماأعطيته رجالا قبلى، فأى الأمانات تعطينى؟ أمان... عمك عبد الله بن علىّ أم أمان أبى مسلم!؟».

فرد المنصور بكتاب يقول فيه «.. بلغنى كلامك.. فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والأولياء... وإنكم بنو بنته (الرسول) وإنها لقرابة قريبة ولكن لايجوز لها **الميراث، ولاترث الولاية**، ولايجوز لها الإمامة فكيف **تورث** بها.. لقد طلبها (الإمارة) أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة نهارا ومرّضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس إلا الشيخان (أبو بكر وعمر)... (و) لقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر.. ولقد طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها إلا ولده.. (و) **ميراث النبى له والخلافة فى ولده**.. (لقد) حزْنا عليكم مكارم الآباء **وورثنا دونكم خاتم الأنبياء**..».

وهكذا يظهر بجلاء من تلك الكتب الثلاثة رأى العباسيين فى العلويين، ورأى العلويين فى العباسيين، كما يبين بوضوح أنهم جميعا يتكلمون عن الخلافة باعتبارها إرثا لهم وميراثا عن النبى، يتجادلون فيمن هو الأولى والأحق بالوراثة، كأنما هى عَرَضٌ مادى أو تركة مُخلّفة؛ ولم يتكلم أحد منهم قط عن الخلافة باعتبارها حقّ الله أو حق الشعب، ولا بوصفها دفاعا عن الإسلام أو صيانة لجماعته أو ذودا عن شريعته. وتفاخروا كما تتفاخر القبائل الجاهلية، بالعصبية والعنجهية، بالجدود والآباء، ولم يتحدثوا أبدا عن قيم الدين أو أخلاق الإسلام أو مبادئ الشريعة.

وفكرة «**ورث الخلافة**» ومعنى اعتبار الخلفاء «**خلفاء الله**» هاتان اللتان بدأتا منذ بدأت الخلافة ذاتها، وتأكدتا مع إقامة الخلافة العباسية، صارتا أساسا لفكر المسلمين ونسيجا لوجدانهم، فشكلتا فهمهم ومباشرتهم لحقوقهم إزاء الخلافة، كما صاغت للخلافة فهمها وممارستها لحقوقها إزاء الأمة.

ففى الخلاف الذى كان قد حدث بين أبى جعفر المنصور وأبى مسلم الخراسانى كتب أبو داود (خليفة أبى مسلم فى الولاية على خراسان) رسالة إليه جاء فيها :«.. إنا لم نخرج لمعصية **خلفاء الله** فى أرضه..!»

وقال ابن هرمة الشاعر للمنصور :-

وما الناس اجتبوك بها ولكن ∴ حباك بذلك الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم ∴ أصول الحق إذ تُفنى الأصول

وقال أبو العتاهية فى مدح المهدى :-

ولو رامها أحد غيره ∴ لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب ∴ لما قبل الله أعمالها

وقال ابن خفضة فى مدح الهادى عندما عقد له المهدى البيعة :-

يا ابن الذى **ورث النبى محمدا** ∴ دون الأقارب من ذوى الأرحام

وقال الشاعر للهادى :-

أيا **أمين الله فى خلقه** ∴ **ووارث الكعبة والمنبر**

وقال منصور النميرى فى مدح الرشيد :-

من لم يكن بأمين الله معتصما ∴ فليس بالصلوات الخمس ينتفع

وقال أبو بكر ابن الخبازة فى مدح المتوكل :-

خليفة ربى وابن عم نبيه ∴ وخير بنى العباس منهم وكى

وعندما كتب أبو يوسف الفقيه المشهور تلميذ أبى حنيفة النعمان كتاب الخراج صدّره إلى هارون الرشيد بقوله «إن الله بمنّه ورحمته وعفوه جعل **ولاة الأمر خلفاء فى أرضه**، وجعل لهم **نورا** يضئ للرعية ماأظلم عليهم من الأمور فيما بينهم، وبين ماشتبه من الحقوق عليهم».

ففكرة «ورث الخلافة» ومعنى «خلفاء الله» قد رسّخا فى الوجدان الإسلامى ورسّبا فى العقل الإسلامى حصانة شديدة للخليفة واعتبارا حادا بأنه أخذها من الله وأنه يمثل الله لا الشعب، وبذلك كان فوق المساءلة بعيدا عن المحاسبة؛ واختلطت أسماؤه بصفات الجلالة كما صارت سلطاته هى حبل الله المتين.

قال المهدى وهو يوبّخ مسلما «.. أما منعتك **جلالة** أمير المؤمنين أن تفعل كذا وكذا..»

وقال أبو جعفر المنصور لولده فى كتابه الذى عهد إليه فيه بالخلافة «.. **السلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم..**»

وبهذه المعانى المائعة والعبارات المرسلة، اختلطت السياسة بالدين وامتزجت الشريعة بالحكم، واضطربت معانى السلطان بمعانى الجلالة، فلم يتضح مجال كلٍّ ولم يتحدد نطاق أىٍّ.

* * *

ولما ركن الخلفاء العباسيون إلى فكرة خلافة الله ووراثة النبى واستطابوا ألفاظ الجلالة واسترخوا فى معانى العصمة، فسدُوا وأفسدوا، فلم يعصمهم ضمير ولم ينههم خلق ولم يضبطهم معيار ولم يحدهم حد ولم يقفهم قانون ولم يعارضهم أحد، فلم يقيموا عدلا بل كانت العدالة هى مصلحتهم هم لا عدل الله، ولم يتبعوا استقامة بل كانت الاستقامة هى مشيئتهم هم لا استقامة الشريعة، ولا رعوا لله حقا بل كان الحق كل الحق مايريدون هم لا ما أمر به الله، ولاحفظو لله حقوقا بل كان الحق كل الحق مشيئتهم هم وما يرغبون فيه وما تشتهيه أنفسهم. والنتيجة المحتومة للدولة الشمولية الدكتاتورية التى استنام فيها واستراح لها كل الخلفاء العباسيين (عدا من لايحسب) أن تتدهور الخلافة ويتحلل نظام الحكم ويتخلف الشعب كله.

وهكذا دارت الدوائر على الخلفاء العباسيين فدالت دولتهم وضعفوا ووهنوا، وبعد أن كانوا يجمعون بين السلطتين الروحية والزمنية بدأ السلطان ينزع منهم شيئا فشيئا حتى صاروا ألعوبة فى يد الحكام ودمية فى عرف السلاطين؛ مما دعا المتوكل أن يضمن هذه المعانى بيتين من الشعر كان يتمثل بهما فيقول :-

أليس من العجائب أن مثلى ∴ يرى ما قل ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنْيا جميعا ∴ وما من ذاك شئ فى يديه

بدأ نفوذ الموالى مع بداية الخلافة العباسية ذاتها، فقد قامت على أكتاف الفرس وصار لهؤلاء نفوذ واسع، خاصة بعد أن غالى المنصور فى استعمالهم فى كافة الولايات والمناصب. وفى عهد هارون الرشيد كانت أسرة البرامكة الفارسية هى التى تتحكم فى كل أجهزة الدولة. وفى عهد المعتصم مال إلى استعمال الترك حتى صارت لهم الغلبة فى عهد المتوكل، ثم قتلوه وعينوا ابنه المنتصر خليفة بدلا منه. ومن هذا الوقت صار الأمر فى أيدى الموالى (الترك ثم الفارسيين) يعينون الخلفاء ويخلعون الخلفاء الذين لحقت بهم مهانة بالغة.

من ذلك أن الموالى هم الذين عينوا المستعين بالله بن المنتصر ثم أمروه بعد ذلك أن يخلع نفسه من الخلافة.. وهكذا. ورشحت جارية اسمها «عَلَمْ» المستكفى بالله بدلا من المتقى وأصبحت قهرمانة له، فلماعُزل قتلت.

وفى عهد المعتمد على الله بن المتوكل انفصلت السلطة الزمنية - أى السلطان - عن السلطة الروحية - أى الخلافة، فكانت الخلافة للمعتمد بينما كان الملك والسلطان لأخيه الموفق ومن بعده لابنه أحمد المعتضد. وفوض الراضى أمر المملكة إلى الأمير محمد بن رائق وأصبح الحكم الفعلى للملوك، بينما صار الخلفاء ألاعيب ودمى يعينهم الملوك والقواد والخدم والنساء.

وصار دس السم للخلفاء قاعدة شبه مطردة، فكثير منهم عُرف أنه مات مسموما مثل المتوكل، وكثير منهم شكا أعراض التسمم قبل وفاته. وسُملت أعين الخليفة القاهر ثم الخليفة المتقى ثم الخليفة المستكفى، وأصبحت عادة سمل الأعين المأخوذة عن البيزنطيين ضمن تقاليد العصر العباسى.

وظهر الخليفة القاهر للناس وقد كف بصره وعليه جبة قد ذهب وجهها وبقى بها بعض قطن بطانتها وهو يرتدى «قبقابا» خشبيا ويتسول الناس اذ يقول لهم : ياأيها الناس تصدقوا علىّ، بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين.

وتولى بعد الترك بنو بويه، فاستمروا فى حكم الدولة من بغداد من ٣٣٤ - ٤٧٥ هـ (٩٤٥ - ١٠٥٥م) أى حوالى قرن من الزمان. وبنو بويه قواد مرتزقة من بلاد الجبل بفارس، زادت سلطتهم جدا منذ عهد المطيع لله بن المقتدر وكان منهم عضد الدولة (المتوفى سنة ٣٧٢هـ، ٩٨٢م) وهو أول من سُمىّ ملكا فى الإسلام ثم سمى نفسه شاهنشاه أى ملك الملوك (وهى تسمية تنافى العقيدة الإسلامية).

ومع الوقت انحط قدر الوزارة كما انحط شأن الخلافة من قبل، فاستصغر الناس الوزارة، وكان أولاد الوزير يأخذون الرشاوى لقضاء الحاجات.

* * *

وفى هذا الانحدار المزرى والانحطاط البالغ تقطعت أوصال الخلافة وتفككت أجهزة الدولة فصارت دويلات، وغلب على كل منطقة ملك أو أمير أو حاكم. ففى حوالى سنة ٣٣٤هـ - سنة ٩٣٥م كانت فارس والرى وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه، وكرمان فى يد محمد بن الياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر فى أيدى بنى حمدان، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيدى، والمغرب وشمال أفريقيا فى يد الفاطميين، والأندلس فى أيدى ملوك الطوائف، وخراسان فى يد نصر بن أحمد الساسانى، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديين، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم؛ ولم يبق فى يد الخليفة ووزارته إلا بغداد وأعمالها.

ويشكو المؤرخ المسعودى من «ضعف الإسلام فى ذلك الوقت وذهابه، وظهور الروم على المسلمين، وفساد الحج، وعدم الجهاد، وانقطاع السبيل، وفساد الطريق...» ويضيف :«إنه لم يزل (يقصد : كان) الإسلام مستظهرا إلى هذا الوقت، فتداعت دعائمه وهى أسه».

ويضيف المؤرخ المقدسى عن بغداد عاصمة الخلافة فيقول «كانت أحسن شئ للمسلمين، وأجلّ بلد... حتى ضعف أمر الخلافة فاحتلت وخف أهلها. فأما المدينة فخراب، والجامع فيها يعمر فى الجمُع، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ... وهى كل يوم إلى وراء ... مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان».

* * *

واتصل الخليفة أبو جعفر المنصور بشرلمان ثم بـ «بين» ملكى الفرنجة يستعديهما على عبد الرحمن الداخل الخليفة الأموى ويتواطأ معهما لإسقاطه. كما يقال إن الخليفة الناصر هو الذى دعا التتار إلى التدخل لحمايته، فلما دخلوا بغداد (١٤ صفر ٦٥٦هـ) دمروها وقتلوا الخليفة المستعصم شر قتلة، وقضوا على الخلافة العباسية فانتهى أمر الخلافة تماما، وظلت ديار الإسلام بلا خلافة مدة ثلاث سنوات ونصف حتى سنة ٦٥٩هـ - ١٢٦٠م، حين أعادها الظاهر بيبرس سلطان مصر (من المماليك الچراكسية أو المماليك البحرية) إذ أحضر له العربان شخصا أسود اسمه أحمد أبو القاسم وادعوا أنه من سلالة العباسيين فنصبه الظاهر بيبرس خليفة باسم المستنصر ونصب هذا الخليفة الظاهر بيبرس سلطانا، ومن ثم أصبحت القاهرة - بدلا من بغداد - مقر الخلافة العباسية.

وعندما ولى بعد المستنصر الخليفة الحاكم بالله (العباسى) قال فى أول خطبة له «... أيها

الناس اعلموا أن **الإمامة فرض من فروض الإسلام... والسلطان ركن الدنيا والدين...** ». وبهذا التقرير يكون الخليفة قد أشار إلى منصبه بلقب الإمامة لا الخلافة، وهو تعبير شيعى، كما أنه اعتبر الإمامة فرض من فروض الإسلام دون أن يذكر - أو يسأله أحد أو يناقشه فقيه - أى فرض هى ؟ وهل هى فرض أضيف إلى فروض الإسلام (أو أركانه) الخمسة لدى السنة فأصبحت الفروض ستة كما هى لدى الشيعة؟ أم أنه كان يستعمل التعبير على سبيل المجاز لشد أزر الخليفة والسلطان فى حروبهم ضد التتار وضد الفرنجة؟ أم أنه كان متأثرا فى استعمال اللفظ بحكم الشيعة الفاطميين لمصر فترة طويلة؟

ومع أن الخليفة أعلن أن الإمامة فرض من فروض الإسلام وأن السلطان ركن الدنيا والدين، فإن السلطان انقلب عليه وخشى منه فأسكنه بقلعة الجبل ومنعه من الاجتماع بأحد من أهل الدولة، ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر فقط.

وظلت الخلافة العباسية فى مصر حتى الغزو العثمانى ٩٢٣هـ - ١٥١٧م.

الفـــتن

كانت الخلافة الأموية - كما سلف البيان - عهدا للفتن والقلاقل. وكذلك، فإن الخلافة العباسية لم تكن عهدا ذا أمان وهدوء وسلام، بل اشتدت فيه الفتن وزادت القلاقل، وكانت هذه وتلك متتالية متلاحقة، تأتى من كل فج وتنتشر فى كل سماء.

فتن الحكم :

فور وفاة أبى العباس السفاح وولاية أبى جعفر المنصور دعا عمه عبد الله بن على إلى خلافته هو بدلا من المنصور، فقتله المنصور. ثم خرج أبو مسلم الخراسانى على المنصور فقتله كذلك.

ودست السم للخليفة المهدى جاريته حُسْنه.

وحاول الخليفة الهادى خلع ولاية العهد من هارون الرشيد ونقلها إلى ابنه هو، فأبى هذا؛ ثم قُتل الهادى بواسطة جوارى الخيزران أم هارون.

واستخلف هارون أولاده الأمين ثم المأمون ثم المعتصم وأخذ العهد على ذلك، فلما وُلى الأمين حاول خلع المأمون من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى، فثارت بينهما الحرب التى قُتل فيها الأمين.

وقبل أن يلى المأمون الخلافة كان فى خراسان فبُويع بها فى بغداد لعمه ابراهيم المهدى فلما دخل المأمون بجيوشه بغداد فر هذا هاربا حتى قبض عليه المأمون ثم تركه حيث اختلط بالمغنيين ولبس لباسهم حتى لايؤخذ بتهمة التطلع إلى المُلك.

ودعا العباس بن المأمون لنفسه بالخلافة فى خلافة عمه المعتصم.

وانقلب المنتصر بن المتوكل على أبيه الخليفة إلى أن قتله، وفى ذلك يقول البحترى :-

وكان ولى العهـد أضمـر غـدره ∴ فمـن عجـب أن وُلـى العهد غـادِره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ∴ ولا حملـت ذلك الدعـاء منابـــره

ثم قتل المنتصر طبيبه، بعد أن وضع السم على مشرط شَرَطه به.

وبويع للمعتز بالخلافة فى عهد الخليفة المستعين، وأجبر المستعين على خلع نفسه، غير أن المعتز - مع ذلك - أرسل إلى المستعين من قتله وحمل إليه رأسه.

وأنهى إلى الخليفة المعتز أن أخاه المؤيد يتآمر عليه فحبسه هو وشقيقه أبا أحمد، ولما نمى إليه أن البعض يجتمعون بالمؤيد فى محبسه أدرجه فى لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات.

وكانت للخليفة المعتضد مظالم كثيرة، كما كان كغيره سفاكا للدماء والغًا فى الآلام فدس له السم شخص (يدعى اسماعيل بن بلبل)، وقيل إن جارية له سمته بمنديل.

وهكذا لم تقف فتن الملك ولم تنته حتى انتهت الخلافة ذاتها.

فتن الناس :

سنة ١٣٣هـ وفى عهد أبى العباس السفاح خرج عليه بعض من كان من عمال الأمويين وكان أشدهم أبو الورد مجزه بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابى - وكان من أصحاب آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد - وانضم إليه كثيرون من أهل قنسرين وأهل حمص وتدمر ومعهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذى قالوا عنه إنه السفيانى (أى المهدى المنتظر من ولد أبى سفيان) وسير السفاح عمه عبد الله بن على فهزمهم.

وبعد أن قُتل أبو مسلم الخراسانى - فى خلافة أبى جعفر المنصور - خرج من أهل خراسان عدد غفير من الناس بقيادة شخص يدعى سنباد، أرادوا الثأر لأبى مسلم، وكان عامّتهم من أهل الجبال فساروا إلى نيسابور وغلبوا عليها وعلى قومس والرى وقتلوا وسبَوْا الكثيرين، فسير إليهم المنصور جيشا، ولما أوشك هذا الجيش على النصر أمر سنباد فحُملت السبايا من النساء المسلمات على الجمال وهن يصحن وامحمداه! ذهب الإسلام! غير أن المعركة انتهت بهزيمة سنباد.

وفى خلافة المنصور كذلك خرجت عليه الراوندية، وهم قوم من خراسان على مذهب أبى مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت فى شخص يدعى عثمان بن نهيك وأن الخليفة أبى جعفر المنصور هو ربهم الذى يقيتهم! وحدثت منهم فتنة شديدة، وحاربهم المنصور حتى استأصلهم وقطع دابرهم.

ثم ظهر - فى ذات العهد - رجل من خراسان اسمه استاذسيس ادعى النبوة وآمن به حوالى ثلثمائة ألف مقاتل. وقد حاربهم المنصور حتى أسر استاذسيس وبنوه وتفرق الباقون. ويقال إن استاذسيس هذا هو أبو مراجل أم المأمون وأن ابنه غالب هو خال المأمون.

وفى عهد المهدى ظهر الزنادقة بحلب فوجه إليهم ابنه الرشيد لحربهم. وفى هذا الوقت ظهر رجل اسمه يوسف ادعى الولاية واستغوى كثيرا من الناس، كما ادّعى النبوة شخص يدعى يوشيا فحورب حتى قُتل وصُلب. وظهر شخص يدعى عطاء ويُلقب بالمقنّع الخراسانى، قيل إنه خيل للناس صورة قمر يطلع فيروه على بعد شاسع، ومازال به المهدى حتى قتله.

وفى عهد الرشيد (سنة ١٧٥هـ) قامت فتنة كبيرة فى دمشق بين المُضرية واليمانية. وفى هذا العهد خرج رافع بن الليث فيما وراء النهر بسمرقند.

وفى عهد المأمون استقل عبد الله بن سرى بحكم مصر حتى حاربه المأمون، كما استولى قوم من الأندلس على الاسكندرية.

وفى عهد الواثق خرج عليه الفقيه أحمد بن نصر وبايعه خلق كثير على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفرقوا الأموال فى الناس دينارا لكل واحد، فأرسل الواثق من قبض عليه ثم قام اليه بالسيف فقتله بنفسه.

وفى خلافة المتوكل قامت فتنة بين البجاة أهل النوبة وأهل مصر. وخرج جند المتوكل عليه وشقوا عليه عصا الطاعة لولا أن وُجِّهوا إلى الحرب بخدعة.

وفى عهد جعفر المهتدى بالله قامت حرب بين الترك الذين كانوا يعادونه والمغاربة الذين كانوا يوالونه. واشتد ساعد الترك وتغلبوا على المغاربة وقبضوا على الخليفة وسلموه إلى رجل فوطئ (أى اعتصر) مذاكيره حتى قتله. وقيل مات بالخناجر، وقيل إنه جُعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال إلى أن مات. وقيل قُتل خنقا كُبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات.

وقامت فى خلافة المقتدر فتنة الحنابلة؛ ذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجعلوا يبالغون فى اظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرها إلى احترام شيعتهم والعمل بقولهم، فكانوا يكبسون دور العامة وقواد الجند، فإن وجدوا نبيذا أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء. واعترضوا الناس فى بيعهم وشرائهم، ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا أحدا من الناس مع امرأة أو صبى سألوه عن الذى معه من هو فإما أن يخبرهم وإلا ضربوه. وخرجوا يوما على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهارا فاضطربت بغداد من فعالهم وضج الناس، فأمر صاحب الشرطة (واسمه بدر الخرشتى) بأن لايجتمع من الحنابلة اثنان ولايناظرون فى مذهبهم ولايصلى منهم إمام، فلم يفد ذلك فيهم، وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكان إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيقومون عليه ويضربونه. وخاف الخليفة شر العاقبة وأصدر فيهم كتابا ينكر عليه فعلهم ويقبح أعمالهم إلى أن انتهوا.

وفى ذات العهد قامت حرب بين السنة والشيعة، فكانت كأنها حرب دينية سفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الأمن وكثر السلب والنهب فى الليل والنهار واشتد البلاء وعظمت الفتنة ومازالت نارها تتأجج فترة طويلة.

ثورات الخوارج :

وطوال العصر العباسى كان الخوارج يعادون الخلافة ويرون أن الخلفاء العباسيين شأنهم شأن خلفاء بنى أمية كلهم لايصلح للخلافة، ولم يتم اختياره باختيار صريح من جماعة المسلمين، ولم يستوف الشروط التى يجب توافرها فى الإمام، وأنه يجب الخروج عليهم جميعا، ومقاتلة كل خليفة وعزله إن أمكن، وقتله إن كان ثمة سبيل إلى ذلك.

وفى عصر السفاح تحركوا فى عمان، وكانوا من الخوارج الإباضية، وقاتلهم السفاح قتالا شديدا، كانت الحرب فيه سجالا حتى أضرم جيش الخليفة النار فى بيوتهم فأشتعلت بما فيها ومن فيها من أولادهم وأهاليهم، ومن ثم وضعوا السيوف فقُتلوا.

وفى عهد المنصور ثار الخوارج بالجزيرة - القسم الشمالى بين دجلة والفرات - فأرسل إليهم جيشا هزمهم.

وثار الخوارج كذلك فى المغرب، من صفيريه وإباضية، فحاربهم المنصور مدة خمس عشرة سنة حتى انقضى أمرهم.

وفى عهد المهدى خرجت جماعة منهم بخراسان فقتلهم المهدى وصلبهم، كما خرج بالموصل رجل يدعى يس التميمى واستولى على أكثر ديار ربيعة والجزيرة فبعث إليه المهدى من قتله.

وفى عهد الرشيد خرج الصحصح بالجزيرة وغلب على ديار ربيعة فسيرّ الرشيد إليه من قتله.

وفى ذات العهد كانت ثورة الوليد بن طريف الخارجى بالجزيرة، وعظم أمره حتى هُزم جيشه بعد وقائع عنيفة وقُتل.

وفى عهد المتوكل خرج كثير من الخوارج، وكانت ثمّ حروب هائلة وكروب مستمرة.

ثورة الزنج :

فى عهد الخليفة المتوكل بن المعتصم بالله ثار العبيد السود فى بغداد والقسم الأسفل من العراق بزعامة على بن محمد بن عيسى المعروف بالبرقعى وبمعاونة القرامطة. وكانت للثورة نزعة تحريرية للعبيد واتجاه اشتراكى لعله أُخذ عن القرامطة. ولم تخمد ثورة الزنج إلا بعد جهد جهيد وخراب كثير ودمار شديد.

وفى سنة ٢٥٧هـ اكتسح الزنج مدينة البصرة عنوة وأتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية مايفوق الوصف شناعة ووحشية.

وفى فعالهم يقدم ابن الرومى صورة تُغنى عن أى وصف، فيقول :-

بينما أهلها بأحسن حال ∴ إذ رماهم عبيدهم باصطلام

دخلوها كأنهم قطع الليل ∴ إذ راح مدلهم الظلام

أى هول رأوا بها! أى هـــول ∴ حق منه يشيب رأس الغـلام

إذ رموهم بنارهم عن يميـن ∴ وشمـال وخلفهـــم وأمـــام

كم أغصّوا من شارب بشـراب ∴ كم أغصّوا من طاعـم بطعـام

أين ضوضاء ذلك الخلق فيـها ∴ أين أسواقهـا ذوات الزحـام

رب قوم باتوا بأجمع شمـل ∴ تركـوا شملهـم بغيـر نظـام

ثورات الشيعة :

ظل الشيعة يقومون بالثورات، ثورة إثر ثورة؛ ويخرجون على الخلفاء، مرة بعد مرة، طوال عهد الخلافة العباسية، وهم يرجون لأنفسهم الخلافة.

فقد سلف بيان خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب على أبى جعفر المنصور. وقد كان مع محمد هذا (الملقب محمد المهدى أو النفس الزكية) أخوه ابراهيم، كما أنه كان قد أرسل ابنه عليًا إلى مصر يدعو إليه الناس فقبض عليه عامل مصر وأرسله إلى المنصور فاعترف له وأخبره بأسماء أصحاب أبيه، فأمر به فحبسوه وظل محبوسا حتى توفى المنصور.

وذهب محمد (النفس الزكية) إلى المدينة واستولى عليها وخطب الناس فقال لهم «قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله (أبو جعفر) مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام.. اللهم إنهم لأحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمّنوا من أخفْت وأخافوا من أمّنت..». وظل به المنصور إلى أن قتله ثم صلب عاملُه (عيسى بن موسى) أصحاب محمد (النفس الزكية) مابين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفّين، وبقوا على هذه الحال أياما ثلاثة؛ ثم أنزلوا فألقيت جثثهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك فى خندق فى «أصل ذباب».

وبعد سنة من ولاية موسى الهادى ظهر الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة فبويع له بالخلافة، وهزم هو وأتباعه أتباع والى المدينة (عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب) فى المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفا. ثم ذهب الحسين إلى مكة ودعا إلى تحرير العبيد التى تلحق به فأتاه العبيد؛ غيْر أن الهادى سيّر إليه جيشا فهزمه وقتله، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على فهرب إلى مصر ثم إلى أرض المغرب. وفى عهد الرشيد أغْوى الشماخ اليمامى وهو أحد شيعة إدريس فوضع السم لادريس وقتله.

وفى أيام المستعين ظهر بالكوفة يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن على بن أبى طالب فسيّر إليه الخليفة من قتله. ثم ظهر بالرى - فى ذات العهد - أحمد بن عيسى بن على بن

الحسين بن على بن أبى طالب ودعا إلى الرضا من آل محمد غير أنه انهزم، ولم تكد تسكن الفتنة حتى ظهر بقزوين الحسن بن اسماعيل بن أحمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فسير إليه الخليفة جيشا هزمه وقتله.

وهكذا ظلت الحرب سجالا، ظاهرة وخفية، ساكنة ومحتدمة، بين العباسيين والعلويين، طوال الخلافة العباسية. وكان العباسيون أشد قسوة على العلويين من الأمويين أنفسهم لأنهم كانوا يعرفون دخائلهم وأساليبهم منذ أن كانوا يعملون سويا فى العهد الأموى. وقد اشتدت شكوى العلويين من العباسيين حتى ترحّموا على أيام بنى أمية. وفى ذلك يقول الشاعر :-

ياليت جور بنى مروان عاد لنا ∴ ياليت عدل بنى العباس فى النار

وقد بكى الإمام الشيعى محمد بن عبد الله بن حسن وقال : لقد نقمنا على بنى أمية مانقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم، وإن الحجة على بنى العباس لأوجب منا عليهم. ولقد كان للقوم (بنى أمية) أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر (المنصور).

وكان نصيب العلويين فى كل ثوراتهم الفشل والقتل والتنكيل حتى صارت أعيادهم أحزانا وضحكاتهم أنّات وابتساماتهم دموعا.

وفى ذلك يقول ابن الرومى :-

لكل أوان للنبى محمد ∴ قتيل زكى بالدماء مضرج

وقد كان السجال بين العباسيين والعلويين يقوم أساسا على أحقية كل منهم بخلافة النّبى ووراثة الملك؛ فلا يتصل بالإيمان ولا بأساس الدين ولابتطبيق الشريعة ولابحقوق المسلمين ولا بأموال المؤمنين. وتركز هذا الخلاف على السلطة فى مساجلات شعرية كان الفرقاء يتداولونها من بعد الشاعر.

قال مروان بن حفصة وهو يمدح المهدى عندما عقد البيعة لابنه الهادى :-

يابن الذى ورث النبى محمدا ∴ دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم ∴ قطع الخصام فلات حين خصام
ماللنساء مع الرجال فريضة ∴ نزلت بذلك سورة الأنعام
أنّى يكون وليس ذاك بكائن ∴ لبنى البنات وراثة الأعمام

وأغاظ البيت الأخير العلويين جدا فردوا عليه بقولهم :-

لم لايكون وإن ذاك لكائن ∴ لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله ∴ والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما ∴ صلى الطليق مخافة الصمصام[٢]

وقيل إن صالح بن عطية (وهو شيعى) لما سمع البيت الأخير من قصيدة مروان بن حفصة

عاهد الله أن يقتله، ثم تقرب إليه حتى أنس إليه مروان، ومازال صالح يتحين الفرصة حتى واتته فاغتال مروان.

ثورة القرامطة :

القرامطة فرقة باطنية من الاسماعيلية الشيعة، وهم أصحاب دعوة انتشرت فى بعض البلاد الاسلامية سنة ٩٠١م، وزعزعت أركان العالم الإسلامى ولم ينته أمرها إلا عندما اصطدمت بالحملات الصليبية. وقد انتشرت الدعوة فى اليمن برياسة حمدان القرميطى (أى أحمر العينين) حينما بعث ميمون القداح الكوفى الشيعى - وكان داعية لولده عبيد الله المهدى جد الفاطميين - باثنين من الدعاة إلى اليمن سنة ٩٠٤م هما على بن الفضل الحميرى اليمنى الأصل ومنصور بن حسن الكوفى للدعوة لعبيد الله. ونجح على بن الفضل نجاحا كبيرا واستولى على ذمار وصنعاء سنة ٩٠٦م وتغلب على جيوش الخليفة الهادى. وقامت فى اليمن فتن وحروب كثيرة واستباح أتباع على بن الفضل كثيرا من الحرمات. وذكر بعض مؤرخى اليمن أنه ادعى النبوة وكان اسمه يُذكر فى الصلاة. وهدأت الحال بعض الشئ عندما مات مسموما سنة ٩١٥م بيد أحد الأشراف الذى كان قد دُس عليه. وبموته انتهى أمر دولة القرامطة فى اليمن.

أما زميله منصور بن حسن فقد تغلب على جزء من بلاد اليمن وجعل مركز دعوته فى بلدة فيه. وظلت دعوة القرامطة مستمرة بمبادئها فى بعض أنحاء اليمن حتى وقت قريب. ويعرف اتباعها باسم المكارمة أو الباطنية.

وقد قطع القرامطة الطريق بين مكة والشرق. وفى سنة ٩٢٨م (٣١٦هـ) شنوا غارات متفرقة تقوم بها العصابات من صحراء الشام إلى جبل سنجار، وخربوا الشام تخريبا شديدا، ثم امتدت غاراتهم ففتحوا البصرة والكوفة وأعملوا فيها النهب وألقوا الرعب فى كل مكان. وفى سنة ٩٢٩م (سنة ٣١٧هـ) اقتحموا برياسة أبى طاهر القرمطى مكة ونهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه، وقلعوا باب البيت كما قلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هجر، واقتسموا كسوة الكعبة بينهم ونهبوا دور أهل مكة. وبينما شارك بعض أهل مكة المغيرين فى نهب البلد الحرام فقد نهض لمقاومتهم البدو الأعراب الذين يقيمون خارج مكة. وفى سنة ٩٣٨م (سنة ٣٢٧هـ) كتب أبو على عمر بن يحيى العلوى إلى القرامطة كتابا فقبلوا عدم الإغارة على الحجاج. وفى سنة ٩٥٠م (سنة ٣٣٩هـ) ردوا الحجر الأسود إلى مكة.

على أن أعمال القرامطة الظاهرة، على قسوتها وفظاعتها، لاتماثل دعواهم بانتهاء الشريعة الإسلامية وانتهاء الدعوة المحمدية، وحلول نبى آخر منهم ودعوة جديدة بدلا منها، وهو الأمر الذى عبر عنه الشاعر فقال وهو على المنبر ببلدة «الجند» :-

خذى الدفّ ياهذه والعبـــى ... وغنى هزازيك ثم اطربى

تولـى نبّى بنى هاشـــــم ∴ وهذا نبّى بنى يعـــرب

لكـل نبـى مضـى شـــرعـة ∴ وهذى شـرائع هذا النبـى

فقد حط عنا فروض الصـــلاة ∴ وحط الصيـام ولم يُتعـب

فلا تطلبى السعى عند الصـفا ∴ ولا زورة القـبر فى يشـرب

الحشاشـون:

وهى فرقة شيعية اسماعيلية سرية دعت إلى إمامة نزار بن المستنصر (الخليفة الفاطمى). وقد أسسها حسن الصّباح الذى انضم وهو حدث إلى الدعوة الفاطمية ووفد على مصر فى خلافة المستنصر الفاطمى (١٠٣٥ - ١٠٩٤م) وانضم فيها إلى مؤيدى إمامة نزار، ثم عاد إلى إيران وبث دعوته فالتف حوله كثيرون واستطاع أن يستولى على قلعة ألموْت الجبلية الحصينة وجعلها مقرا لدعوته، ووجه اهتمامه إلى الاستيلاء على قلاع أخرى وإلى التخلص من أعدائه بالاغتيال، فكان ممن قضى عليهم الحشاشون الوزير السلجوقى نظام الملك (١٠٩٢م). وقد ساعد الحشاشين على تقوية صفوفهم وتوسيع نطاق دعوتهم ضعفُ الخلافة العباسية ونزاعات السلاجقة على العرش وانقسام العالم الإسلامى على نفسه وقيام الحروب الصليبية. وقد تميزوا بتنظيم دقيق وباتخاذ الاغتيال أداة يتخلصون بها من أعدائهم. واتسع نطاق الدعوة حتى شمال الشام. وفى سنة ١٢٥٦م هاجم هولاكوخان التترى قلعة ألموت وقضى على الحشاشين بفارس. ثم قضى عليهم فى الشام السلطان الظاهر بيبرس المملوكى سنة ١٢٧١م، ولم تبق منهم إلا فرق متفرقة فى سوريا وإيران والهند.

الحـــروب:

فى عهد الخلافة العباسية قامت حروب كثيرة مع ملوك الروم انتهت بالحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان (سنة ١٠٩٥م - سنة ١٢٩١م). وقد كان لهذه الحروب أثر شديد، وبعيد على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الإسلامى كله، ولعل هذه الآثار مازالت ممتدة حتى العصر الحالى.

هذا فضلا عن حروب التتار التى هاجمت بغداد برياسة هولاكو التترى ودمرت بغداد وقضت عليها (سنة ١٢٥٨م - ٦٥٦هـ) وقتلت الخليفة المستعصم بالله، وقتلت أهلها طائفة بعد طائفة، وجماعة إثر جماعة، ولم يسلم إلا من كان صغيرا فأخذ أسيرا، ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالأمان. واتجه التتار بعد بغداد إلى الشام ومصر ولم يقفهم إلا الجيش المصرى بقيادة سيف الدين قطز (الملقب بالملك المظفر).

وكانت مدة الخلافة حتى تدمير بغداد ٥٢٤ سنة حكم فيها ٣٧ خليفة.

الاستبداد

كان كثير من الخلفاء العباسيين شبانا غير مستقرى الشخصية ولامتوازنى النفس ولاهادئى الطبع فزلزلتهم السلطة المطلقة وأفسدهم التقديس المبالغ فيه، ومن ثم صاروا إلى اتجاهات غير سوية وإلى طباع دموية متطرفة؛ فكان الاستبداد والبطش والعنف والقتل أسرع إلى نفوسهم من أى شئ آخر، وكانوا يتسمون بالتطرف الشديد فى التدين الظاهر والتطرف الشديد فى العدوان السريع. وامتزج التطرفان معا ليقدما نماذج غريبة للحكام الذين يضحكون ويبكون فى آن واحد، ويتعبدون ويظلمون فى لحظة واحدة.

فأبو العباس السفاح ولى الخلافة أربع سنوات وثمانية أشهر تقريبا ، وتوفى وعمره ثلاثة وثلاثون عاما (على الأرجح).

ومحمد المهدى ولى الخلافة عشر سنوات وشهرا، وتوفى وعمره اثنان وأربعون عاما (أو ثلاثة وأربعون)؛

وموسى الهادى ولى الخلافة سنة وثلاثا أشهر، وتوفى وعمره ستا وعشرون سنة (أو ثلاثة وعشرون)؛

وهارون الرشيد ولى الخلافة ثلاثة وعشرين سنة تقريبا، وتوفى وعمره سبع وأربعون سنة (أو خمس وأربعون)؛

ومحمد الأمين ولى الخلافة أربع سنين وثمانية شهور، وقتل وعمره ثمانية وعشرون عاما؛ والواثق بالله ولى الخلافة خمس سنوات وتسعة أشهر، وتوفى وعمره ست وثلاثون سنة تقريبا؛ والمتوكل على الله ولى الخلافة أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وتوفى وعمره أربعون سنة؛

والمنتصر بالله ولى الخلافة ستة أشهر ، وتوفى وعمره ست وعشرون سنة تقريبا .. وهكذا؛

ويتركز إدراك هؤلاء الخلفاء - وغيرهم - للاستبداد فى بيتين من الشعر دسهما خصوم البرامكة على الرشيد فغنتهما مغنية له ومن ثم حركا فيه نزعاته الدفينة فنكبهم. ويقول البيتان:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ∴ وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة ∴ إنما العاجز من لايستبد

فالاستبداد ضرورة وإلا كان المرء عاجزا ، ولاسبيل لتوقى العجز إلا بالاستبداد، لا بالصبر ولا بالحلم ولا بالأناة ولابغيرها. والاستبداد لابد أن يكون مرة واحدة أى بطشا سريعا بلا رحمة وعنفا حامًا كالقضاء المبرم.

وقد سلف بيان، ما أحدثه أبو العباس السفاح فى قبور الخلفاء الأمويين، وما فعله مع من تبقى منهم رغم أنه كان قد أعطاهم الأمان.

وأبو مسلم الخراسانى - منشىء الدولة العباسية بسيوفه وسيوف جيوشه - كان طاغية داهية جبارا. خطب يوما فقام إليه رجل وقال له : ماهذا السواد الذى أرى عليك. فقال أبو مسلم على الفور : حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبى (صى الله عليه وسلم) دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء. وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة. ثم التفت إلى غلامه وقال : ياغلام اضرب عنقه، فضرب السياف عنقه فأطاحها. وقيل إن أبا مسلم قتل فى أيام ولايته ستمائة ألف نفس صبْرا، عدا من قُتل فى الحروب.

وأبو جعفر المنصور كان مستبدا ظالما باطشا قتلت جيوشه العلويين الخارجين عليه ومنهم عيسى بن زيد - وهو الذى كان دعاة العباسية أنفسهم يدعون له قبل انشاء خلافتهم - فطيف برأسه فى طبق أبيض بالمدينة.

وقال رجل للمنصور «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو». فقال المنصور : لأن بنى مروان لم تبل رممهم، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء، فليست تتمهد لهيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة. واستنصح المنصور عمرو بن عبيد (المعتزلى) فقال له : إنه ماعُمل وراء بابك بشئ من كتاب الله ولا سنّة نبيه... ببابك ألف مظلمة، أردد منها شيئا نعلم أنك صادق. ووشى إلى المنصور برجل اسمه الفضيل بن عمران كان قد عينه كاتب وولى أمر ابنه جعفر؛ فقيل للمنصور إن الفضيل يعبث بجعفر ابنه، فبعث المنصور برجلين وأمرهما أن يقتلا الفضيل حيث وجداه، فضربا عنقه. وقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرأ الناس مما رُمى به، وقد عجلت عليه؛ فوجه رسولا وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يُقتل، فقدم الرسول قبل أن يجف دمه. واستنكر الأمر جعفر بن المنصور وقال لمولاه سويد «مايقول أمير المؤمنين فى قتل رجل عفيف ديّن مسلم بلا جرم ولاجناية» فقال سويد : هو أمير المؤمنين يفعل مايشاء وهو أعلم بما يصنع.(!!!)

وكان المهدى مولعا باللهو ويأذن بالشراب فى حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود طهمان فألقاه فى السجن. وغضب بشار بن برد من يعقوب الوزير فقال :

بنى أمية هبوا طال نومكم ∴ إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ∴ خليفة الله بين الزق والعود

فقتل المهدى بشارا لقوله هذين البيتين بعد أن اتهمه بالزندقة، وكأنه لم يتزندق قبلهما !!

واستدعى المهدى معاوية بن يسار ومعه ابنه الذى اتهم بالزندقة فسأله تلاوة بعض آيات القرآن فلم يتمكن، فقال المهدى لوالده : قم فتقرب إلى الله بدمه، فتعثر الأب ووقع وارتعد، فأمر المهدى بعض الحضور بقتل الولد فقُتل أمام والده.

ووقع بشر بن الليث أسيرا للرشيد فقال له : والله لو لم يبق من أجلى إلا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت : اقتلوه. ثم أمر قصابا ففصل أعضاءه ومثل به تمثيلا.

وقبض الرشيد على يحى بن عبد الله (أخو النفس الزكية) بعد أن أعطاه العهد، ثم استفتى الرشيد العلماء فى نقض العهد فوافقه بعض الفقهاء، ومنهم محمد بن الحسن الشيبانى (تلميذ أبى حنيفة) فحبس الرشيد يحيى.

وقبض على الإمام محمد بن إدريس الشافعى ضمن عشرة حُشروا إلى الرشيد لاتهامهم بالتشيع فقتلهم الرشيد واحدا بعد واحد. ولما وصل للتاسع كان غلاما انكر التهمة وقال للرشيد : إن كان لابد من ضرب عنقى فأنظرنى أكتب إلى أمى بالمدينة فهى عجوز لم تعرف بخبرى، فرفض الرشيد هذا المطلب البسيط (الإنسانى!!) وأمر بضرب عنقه. ولم يعف الرشيد عن الإمام الشافعى إلا بعد أن شهد له الفقيه محمد بن الحسن الشيبانى، وبعد أن قال هو للرشيد : ياأمير المؤمنين : أأدع من يقول أنى ابن عمه إلى من يقول إنى عبده؟ قصد من ذلك أن العباسيين يقولون انهم أبناء عم لبنى قريش بينما يقول بنو عبد المطلب (كما قال حمزة) إنهم عبيد لهم.

وكان هارون الرشيد قد رضع فى طفولته من زوج يحيى بن خالد البرمكى (الفارسى) فصار ابنا لها بالرضاع، وأخا فى الرضاع لولديها جعفر والفضل. وتوطدت العلاقة - فيما بعد - بينه وبين جعفر حتى كانا يتلازمان دائما ويدخلان فى ثوب واحد فانطلقت ألسن العامة فى حقهما. وولى الرشيد آل البرامكة الوزارة وترك لهم أمر تدبير المملكة، وولى جعفرا على مصر ثم خراسان. وكانت العباسة أخت الرشيد تحضر سهراته الماجنة فعقد زواجها على جعفر البرمكى ليحلل حضورهما معا سهراته الليلية، على ألا يدخلا ببعضهما. وعلم الرشيد بعد فترة أن الزواج الذى قصد أن يكون نظريا غير عملى قد انتهى إلى مالا يرغب فقامت علاقة زوجية بين الزوجين - من وراء ظهره - أثمرت ولدا نجيبا. وغضب الرشيد غضبا شديدا من ذلك، ودس عليه أعداء البرامكة من استثار عواطفه الملتهبة وميوله الاستبدادية فغنت له جارية بيتى الشعر السالف بيانهما :-

ليت هندا أنجزتنا ماتعد ∴ وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة ∴ إنما العاجز من لايستبد

وثارت مشاعر الرشيد الجريحة وانطلقت اتجاهاته الدموية فقتل جعفرا، وزج فى السجن بأبيه يحى وأخيه الفضل وصادر أموالهم جميعا. ورفض أى شفاعة فيهم حتى من ظئره (أمه فى الرضاع). ووضع الرشيد رأس جعفر على جسر وجثته على جسر آخر، وكان كلما شاهد الجثة بكى، وظل كذلك حتى أمر بإحراق الجثة. واستدعى الرشيد ابن جعفر والعباسة وحادثه فأعجب بنجابته ثم أمر بقتله. ولم يطق الرشيد بعد نكبة البرامكة أن يقيم فى بغداد فبارحها إلى الرقة ثم خراسان.

ويقول بعض المؤرخين إن الرشيد نكب البرامكة لسيطرتهم وعلو مكانتهم ولأنه كان يطلب

القليل فلا يجده؛ وهو تعليل واه لايصمد للتحليل السليم. فلو صح ذلك لكان من الأيسر والطبيعى أن يعزل الرشيد البرامكة دون أن ينكبهم، أو أن ينكبهم دون قتل لجعفر بالذات ثم لابنه من بعده (وهو ابن أخته) والبكاء كلما شاهد جثة جعفر. والذى يفسر هذه الواقعة الشنعاء أنها كانت نتيجة عاطفة مريضة جياشة فجعت وطعنت فأرادت الانتقام وهى تملك الرقاب والأموال بكلمة، فانتقمت انتقام المحب المفجوع والعاشق الجريح!

وفى عهد المأمون قال أحمد بن أبى خالد عندما عُرضت عليه الوزارة «لم أر أحدا تعرض للوزارة وسلمت حاله!».

وغضب المأمون يوما على شاعر فأمر به فأخرجا لسانه من قذاله (قفاه)

وكان للمأمون قائد يدعى على بن هشام له جارية اسمها «متيم» اشتد عشقه لها لحسنها وجودة غنائها، فتلطف المأمون ذات ليلة إلى ابن هشام وطلب إليه أن يحضرها إلى قصره. ليسمعها، فأحضرها ابن هشام، ولما سمعها المأمون طرب لها طربا شديدا وحلت من قلبه محلا رفيعا فسأل ابن هشام أن يهبها له فتجاهل هذا سؤال الخليفة وعاد بجاريته مسرعا إلى داره؛ واستشار فى الأمر من أشار عليه بأن تحمل منه «متيم» لأن المأمون لايحب الجوارى ذوات الأولاد ففعل ابن هشام. وأسرها المأمون فى نفسه وطفت عليه دمويته فأمر بقتل على بن هشام متذرعا بأمور لفقها له تلفيقا، ثم أمر بمصادرة أملاكه وأمواله، كما أمر بتخريب واحراق القصر الذى عاش فيه مع «متيم».

ودعى محمد بن الحرث إلى الواثق فى يوم لم يكن يدعى فيه فقال «دخلنى فزع شديد وخفت أن يكون ساع قد سعى بى أو بلية قد حدثت فى رأى الخليفة علىّ...» غير أن الواثق أمره بالغناء ثم طرب فأمر له بعشرة آلاف درهم وتخوت.

وقتل الواثق بنفسه - فى مجلسه - أحمد بن نصر لأنه لم يكن يقول بخلق القرآن.

وأمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع القبر وأن يمنع الناس من اتيانه، ولم يبق للقبر أثر.

وكان المعتضد إذا غضب على القائد النبيل الذى يختصه من رجاله أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى على رأسه ويطرح التراب عليه ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه (من دبره، كما كانوا يظنون!) وذكر من عذاب المعتضد أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيد ويؤخذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفمه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينتفخ ويعظم جسده ثم تسد دبره بشئ من القطن ثم يفصد - وقد صار كالجمل العظيم - من العرقين الموجودين فوق الحاجبين فيموت. وربما كان يوضع الرجل فى أعلى السطح مجردا وموثقا ويرمى بالنشاب حتى يموت. واتخذ المعتضد المطامير وجعل فيها أصناف العذاب، وجعل عليها شخصا «متولى» لعذاب الناس.

أما المكتفى بالله فقد تغيرت أحواله بمجرد ولايته الخلافة فركب متن هواه وسلك مسلك أبيه ومالت نفسه إلى الإيذاء والعبث بحقوق الرعية - كغيره. وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بإزاء قطربل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى، صادرها - بغير ثمن - من ملاكها.

وعندما ولى القاهر الخلافة قبضوا على والدة الخليفة السابق المقتدر وطالبوها بما عندها من أموال فاعترفت بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجواهر فضربوها أشد مايكون الضرب وعلقوها من قدميها وضربوا المواضع الحساسة من بدنها فحلفت أنها لم تمتلك إلا ماقدمته. واشتدت بها العلة من إيذائها فماتت، ودفنها ثلاثة من خدمها فقتلوا ووضعت رءوسهم فى خزانة الرءوس (أى الخزانة التى كانت توضع فيها رءوس من يأمر الخليفة بقتلهم ويحب الاحتفاظ برءوسهم بعد قتلهم).

* * *

تلك نماذج من الاستبداد والمظالم تتضمن كافة أنواع التعذيب والقتل والمصادرة والعدوان على الحريات والاعتداء على الحرمات، مما لايمكن أن يتصور عاقل أن يصدر عن منصب إسلامى كالخلافة!! وعن خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين (وأنوار الله!!).

ولم تقتصر المظالم أو يقف الاستبداد على الخلفاء وعندهم، وإنما انتشر منهم إلى الوزراء والحكام والولاة حتى استشرى فى كل أنحاء الدولة فصار كل خيط لهم ظلم وكل نسيج لهم عسف. وأبو العلاء المعرى يشير إلى فساد الولاة والحكام والساسة فيقول فى شعره :-

مُلّ المقام فكم أعاشر أمة ∴ أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ∴ وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويقول :

يسوسون الأمور بغير عقل ∴ فيُسمع أمرهم ويقال ساسةُ

فأف من الزمان وأف منى ∴ ومن زمن رياسته خساسةُ

ويقول :

ساس الأنام شياطين مسلطة ∴ فى كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم ∴ أن بات يشرب خمرا وهو مبطان

فالناس من العامة، الذين يعبر الشعر عن وجدانهم وعما يتردد فى ضمائرهم، يرون أن الحكام شياطين مسلطة عليهم، وأنهم مبطنون شاربو خمر، يسوسون الأمور بغير عقل، أخساء، يظلمون الرعية ويستبيحون كيدها، ويتجاوزون مصالح الناس مع أنهم أجراء لهم.

غير أن الناس كانوا يتعلقون بالأوهام، ويتخلقون بالمثاليات، ويتطلعون إلى المعانى

الصحيحة للحكم، تلك التى صارت فى عهود الخلافة ضربا من المجاز ونوعا من الخبل!!

الاستبداد مع الفقهاء والعلماء:

عاش الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت خلال الخلافتين الأموية والعباسية (٨٠-١٥٠هـ)، وقد أراد يزيد بن عمر بن هبيرة أن يوليه قضاء الكوفة أيام مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) فرفض أبو حنيفة ذلك، فضربه الوالى مائة سوط وظل يضربه كل يوم عشرة أسواط لاقناعه!! أو لإجباره على النزول على إرادته، فلما يئس الوالى من أبى حنيفة خلى سبيله.

وبعد بناء مدينة بغداد استدعى الخليفة أبو جعفر المنصور أبا حنيفة النعمان وعرض عليه أن يلى قضاء الرصافة فاعتذر أبو حنيفة من ذلك، فألحق به المنصور عسفا وعنتا.

والإمام أبو عبد الله مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) كان يتجنب السياسة حتى لايؤذى أو يقتل، ومع ذلك فقد سُعى به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وهو والى المدينة وعم أبى جعفر المنصور فقيل له إن مالكا حدّث بحديث النبى (صلعم) «ليس على مستكره طلاق» وأنه يقصد بذلك أن إيمان بيعة الخلفاء العباسيين ليست شيئا ملزما بل إنها حدثت على الإكراه فليس على المبايع مبايعة. وقد غضب الوالى من ذلك ودعا بمالك إليه وجرده من ثيابه وضربه بالسياط، ومُدت يده حتى خُلعت كتفه. وقد استرضى الخليفة المنصور بعد ذلك مالكا فغفر للحكم العباسى هذه الإهانة البالغة وأثنى على المنصور وعلى علمه وفضله!!

أما الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) فكانت جريمته الكبرى أن قال مايقوله أهل السنة جميعا من أن القرآن كلام الله الأزلى، وأنه ليس بمخلوق، وهو قول على الضد من قول المعتزلة. وإذ كان الخليفة المأمون معتزليا يرى أن القرآن مخلوق فقد أصدر مرسوما بأن تكون عقيدة المسلمين مثل عقيدة المعتزلة، وأمر وهو فى طرسوس باحضار أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فحُملا إليه حملا غير كريم فوصلا طرسوس بعد وفاة المأمون. وتوفى محمد بن نوح فبقى أحمد بن حنبل فى الساحة وحده وأعيد إلى بغداد. وأمام الخليفة المعتصم - الذى تلى المأمون - أصر أحمد بن حنبل على أن القرآن غير مخلوق فأمر الخليفة بجلده وتعذيبه وأودعه السجن فظل فيه ثمانية وعشرين شهرا.

وكما اعتذر أبو حنيفة من ولاية القضاء فقد اعتذر منها أبو سفيان الثورى وفر هاربا حتى لايؤذى إيذاء أبى حنيفة.

أما ابن المقفع فقد كتب للمنصور كتابا سماه «رسالة الصحابة» ينصح فيه الخليفة بحسن اختيار من يعاونه وحسن سياسة من يحكمه. فأمر به المنصور وقطع أصابعه التى كتبت الرسالة ثم قطع أطرافه قطعة قطعة وشويت على النار أمام عينيه، وأجبر على أكلها، حتى مـــات.

الخــلاعة والمجــون

كانت الدولة الأموية أعرابية بدوية فكانت ساذجة بدائية حتى فى لهوها وعبثها، تنقل عن بعض البلاد المفتوحة عاداتها لتصبغها بصبغتها هى وتضفى عليها من خصالها الكثير. لذلك، كانت الخلاعة شبه مستورة وكان اللهو قرب مخفور، أما فى العصر العباسى فقد صارت الخلاعة مجترئة متبجحة وأصبح اللهو سافرا مستهترا. لقد كانت الدولة العباسية دولة الموالى فأقاموها على طباعهم وأسسوها على أذواقهم، فإذا بالترف والنعيم يعم ويسود وينتشر، ثم يتحول مع الوقت إلى خلاعة ومجون وفساد.

بدأ الأمر فى قصور الخلفاء المهدى والرشيد والأمين والواثق والمتوكل حيث أصبحت القصور مغانى حافلة ومقاصف للهو وحانات للشرب وساحات للرقص وأماكن للعبث، ثم تبعهم فى ذلك المياسير وأولاد الخاصة ثم انتشر الأمر حتى ساد جل طبقات الشعب، فإذا ببغداد تحفل بالمواخير وبيوت الدعارة وأماكن الفسق ومحال القمار ودور الغناء. وكان العراقيون يبيحون شرب النبيذ كما كان الحجازيون يبيحون السماع والغناء، فجمع الناس اللهو فى بيت واحد من الشعر يرددونه فيبيحون به الشرب والغناء جميعا :-

رأيه فى السماع رأى حجـازى ∴ وفى الشراب رأى أهل العـراق

وسدر الناس فى غيهم بلا ضابط ولا رابط، لا يعبأون بحرام ولايلتفتون لحلال، بل يعبر عنهم بيت من الشعر قاله أبو نواس (الحسن بن هانى المتوفى سنة ١٩٨هـ) الذى كان أحسن من يعبر عن روح العصر وخلق الناس آنذاك :-

فإن قالوا حرام قل حـرام ∴ ولكـــن اللذائـذ فى الحـرام

إنه منطق اللذة دون التفات إلى دين وأسلوب العبث بغير اهتمام بأى قيم.

لقد أولع الناس بالغناء وتفننوا فيه، كما أبدعوا فى مجالس الغناء كثيرا من الملح والنوادر. وكان من المغنيين والمغنيات فى ذلك العصر ابراهيم المهدى (أخ الرشيد) وعلية المهدى (أخته) وإبراهيم الموصلى واسحاق الموصلى وذات الخال وبحى المكى ومخارق وشاربه ومعبد وسليم الكوفى وسياط وبذل وغيرهم. وكان الخليفة الواثق يضع الألحان كما كان إبراهيم المهدى كذلك.

وعنى الناس بتربية الحمام وتغالوا فى أثمانه، من قبيل الترف. ولعبوا بالشطرنج والنرد وغلوا فى ذلك. وتهارشوا بالديوك والكلاب، وأولعوا بالنقش والتصوير. وأغربوا فى الاحتفال بعيد النيروز (رأس السنة الفارسية). وكثرت الإماء والبغايا والعاهرات والمخنثون. وفسدت بغداد - وغيرها من المدن - فسادا كبيرا حتى قال شاعر عنها :-

قل لمن أظهر التنسك فى الناس ∴ وأمسى يعد فى الزهـــاد
الزم الثغـر والتواضع فيـــه ∴ ليس بغداد منزل العبـــاد

وكان بشر بن الحارث يقول : بغداد ضيقة على المتقين لاينبغى لمؤمن أن يقيم بها.

وتبين مدى الهاوية التى انحدرت إليها أخلاقيات العصر العباسى من تعقبها فى نواح ثلاث :- الترف، والخمريات، والغزل بالمذكّر.

الـــترف:

كانت للرشيد زهاء ألفى جارية وللمتوكل أربعة آلاف جارية. وكانت الجوارى تُفضّل عن الحرائر، وفى ذلك يقول القائل : إن الأمة (الجارية) تُشترى بالعين وترد بالعيب، والحرة غل فى عنق من صارت إليه.

وكان المهدى مولعا باللهو يأذن بالشراب فى حضرته، وعلم ذات يوم أن ابراهيم الموصلى يشرب مع ولديه موسى وهارون فضربه على ذلك.

وكان الرشيد يشرب النبيذ.

واحتج الحسين بن على بن أبى طالب على عمر بن عبد العزيز بن الخطاب لإقامته حد شرب الخمر على ثلاثة أشخاص شربوا النبيذ، وقال له : لقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لايرون به (شرب النبيذ) بأسا.

وأظهر المتوكل أكثر من أى خليفة آخر فى مجالسه اللعب والمضاحك والهزل، وكانت له مدينة اسمها «الماخورة» (ولعله من هذا الاسم جاء وصف كل دار لهو بأنها ماخورة).

وكان للمنتصر بساط عليه صور لأشخاص وعليه نقوش وكتابة فارسية.

وعندما ولى جعفر المهتدى بالله بن هارون حاول القضاء على العبث والخلاعة والمجون فقضى على نفسه، ومما فعله يبين حال من سبقه. لقد أخرج الملاهى وحرم سماع الغناء ومنع الشراب وأمر بنفى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وتغيير المنكرات. وأمر باخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم. وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت. وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والديوك، وقتل السباع المحبوسة. ورفع بُسط الديباج.

وكان الخلفاء قبله ينفقون على موائدهم فى كل يوم عشرة آلاف درهم فخفض ذلك إلى مائة درهم. وكان يقول : إنى أستحى من الله أن لايكون فى بنى العباس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية. غير أن الناس لم تطق مافعل ولم تتحمل تقواه فقتلوه بوطء (عصر) مذاكيره، وكانت كل مدة خلافته أحد عشر شهرا وخمس عشرة ليلة.

الخمـــريات:

فى الشعر العربى فصول عن الخمريات؛ وتعقب شعر الخمريات طويل وبعيد، لذلك يحسن

الاقتصار على بعضه ممن كان يمثل العصر العباسى. وأفضل من كان يعبر عن هذا العصر أبو نواس؛ ذلك أنه لم يكن بدعة فى وقته ولا كان نموذجا مرفوضا، لكنه كان معبرا حقيقيا عن

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ∴ ولاتسقنى سرا إن أمكن الجهر

ويقول :

وزاهرىّ سما فى فرع مكرمة ∴ من معشر خلقوا فى الجود غايات

ناديته بعدما مال النجوم وقد ∴ صاح الدجاج ببشرى الصبح مرات

فقلت والليل يجلوه الصباح كما ∴ يجلو التبسم عن غر الثنيات

«يا أحمد المجد فى كل نائبة ∴ قم سيدا نعص حبل السماوات»

والخليفة الواثق، ونُسب إلى أشخاص مشاهير عدول مثل القاضى يحى بن أكثم و معتزلى ابراهيم النظام، وغيرهم كثير.

وقد قيل إن الأمين لما ملك (ولى الخلافة) طلب الخصيان وأبتاعهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره وقوامه وطعامه وشرابه وأمره ونهيه (!!!) ورفض النساء والحرائر. وقد حاولت أمه زبيدة أن تصرفه عن الغلمان إلى الفتيات اللاتى يتمثلن بالغلمان، فأعدت له البعض منهن وصرن يُسمّين : الغلاميات.

وعن حب الأمين للخصيان يقول أبو نواس :-

صيّر الخصيان حتى ∴ صير التعيين [٤] دينا

وتغزل أبو نواس فى الأمين نفسه واشتهاه فقال :-

أصبحت صبا لا أقول بمن ∴ من خوف من لايخاف من أحد

إن أنا فكرت فى هواى له ∴ حسبت رأسى قد طار عن جسدى

أنى على ماذكرت من فرق ∴ لآمل أن أناله بيدى

وعشق الأمين غلاما اسمه «كوثر» فقال فيه :-

مايريد الناس من صب ∴ ب بما يهوى كثيب

كوثر دينى ودنيا ∴ ى وسقمى وطبيبى

أعجز الناس الذى يلحـ ∴ ـى محبا فى حبيب

أما الواثق فقد عشق غلاما يدعى «مهج» فقال فيه :-

ياذا الذى بعذابى ظل مفتخرا ∴ ما أنت إلا مليك جار إذ قدرا

لولا الهوى لتجارينا على قدر ∴ وإن أفق منه يوما ما فسوف ترى

وقال إبراهيم النظام :-

وشادن [٥] ينطق بالظرف ∴ يقصر عنه منتهى الوصف

رق فلو بزت سرابيله ∴ علقه الجو من اللطف

يجرحه اللحظ بتكراره ∴ ويشتكى الإيمان بالطرف

أفديه من مُعْزًى بما ساءنى ∴ كأنه يعلم ما أخفى

وقال إمام فقيه فى تلميذه محمد بن الحكم بن أعين القرشى المصرى:-

مرض الحبيب فعدته ∴ فمرضت من حذرى عليه

وأتى الحبيب يعودنى ∴ فبرئت من نظرى إليه

الشعـــوبية

كانت الدولة الأموية- كما قال الجاحظ- عربية أعرابية فمالت إلى العرب وإلى العربية وميزتهم بصورة تنافى روح الإسلام وتنافر مشاعر غير العرب من المسلمين. وقد سلف بيان ما أحدثته الدولة الأموية من فرض جزية على المسلمين من غير العرب ومن سوء معاملة هؤلاء بصفة عامة واعتبارهم عنصرا ثانيا فى المجتمع وطبقة أدنى من طبقتهم هم.

من أجل العنصرية والشعوبية أساسا، ولأسباب أخرى متداخلة متغايرة، تجمع الموالى (المسلمون غير العرب) وعملوا على إسقاط الخلافة الأموية ونجحوا فى ذلك بقيادة أبى مسلم الخراسانى الفارسى.

وشعر بعض العرب باتجاهات الموالى وتخوفوا من النتائج، فقال نصرين سيار يحذر العرب من العدو الفارسى الداخل عليهم :-

أبلـــغ ربيعـــة فى مـــروٍ وإخـــوتهم ∴ فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضـب

ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ∴ حـربا يحرق فى حافاتها الحطـب

مابالكـــم تلفحـــون الحـــرب بينكمُ ∴ كأن أهل الحجاز عن رأيكم عُزُب

وتتركـــون عـــدوا قـــد أظلكمـــو ∴ مما تأشب، لا ديـن ولا حسـب

قدمـــا يدينـــون ماسمعـــت بـه ∴ عـن الرسول ولم تنزل به الكتب

فمـن يكن سائلا عن أصل دينهمو ∴ فـإن دينهمـو: أن تُقتل العرب

ورد الفرس هذا الشعور الأسود الضروس بمثله، فكتب إبراهيم الإمام لأبى مسلم الخراسانى يقول له : «إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم العربية إلا قتلته فافعل! وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ! وعليك بمضر فإنهم العدو القريب الدار فأبِدْ خضراءهم ولا تدع على الأرض منهم ديّاراً».

وركن العباسيون إلى الموالى وبخاصة الفرس، فابتدأ المنصور يكثر من استخدامهم، فاستعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب، وكثر ذلك من بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها، وصار الوزراء من الفارسيين مثل آل البرامكة وبيت بنى بويه.

وقال رجل للمأمون : يا أمير المؤمنين ! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان.

فقال المأمون: أكثرت على يا أخا أهل الشام ! والله ما أنزلتُ قيسا (عرب الحجاز) عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ! وأما اليمن، فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط. وأما قضاعة فَسادتها تنتظر السفيانى (المخلص والمهدى من بيت بنى أمية)

وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة (أهل نجد) فساخطة على الله منذ بعث نبيه فى مضر (الحجاز). ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاربا. اعزب فعَل الله بك".

وانتشرت الشعوبية، أو العنصرية، بين جميع الشعب، بشعورها الردئ وتحزبها المقيت، حتى صارت نسيج الخلافة العباسية. وظهر ذلك فى الأدب حيث يقول العربى:

لا تغترر أنك من فارس ∴ فى معدن الملك وديوانه
لوحدّثت كسرى بذا نفسه ∴ صفعته فى جوف إيوانه

ويقول المتنبى :-

وإنمـــا الناس بالملوك ومـا ∴ تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهـــم ولا حسب ∴ ولا عهـود لهـم ولا ذمم

ويرد الشاعر المتوكلى الفارسى وكان من ندماء الخليفة المتوكل فيقول :-

أنا ابن المكارم من نسل جم ∴ وحارث إرث ملوك العجـم
لنا علـم الكـابيان الـذى ∴ به نرتجى أن نسود الأمـم
فقـل لبـنى هاشم أجمعين ∴ هلموا إلى الخلع قبل الندم
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز ∴ لأكل الضباب ورعى الغنم
فإنى سأعلو سرير الملـوك ∴ بحد الحسام وحرف القلـم

أما فى السياسة، وعلى الخلافة، فقد كان من أثر الشعوبية أن صارت الخلافة للعرب والوزارة للشعوب؛ الاسم للأولياء والفعل للموالى. وسيطر الوزراء على مقاليد الحكم حتى صارت الخلافة بلا أى سلطة؛ وهو الأمر الذى دعا الخليفة المتوكل لأن يقول :-

أليس من الغرائب أن مثلى ∴ يـرى ما قل ممتنعا علـيه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ∴ وما من ذاك شئ فى يديـه

وظهر أثر الشعوبية فى جند الدولة فقد كانوا خمسة أقسام: خراسانى، وتركى، ومولى (فارسى)، وعربى، وبنوى.

وفى الفقه الإسلامى ظهر أثر الشعوبية على بعض المباحث، وعلى سبيل المثال، مدى كفاءة الفارسى للتزوج من عربية.. وهكذا .

الدولـــة الدينـية

من قبل أن تنشأ الخلافة العباسية، وعندما كان الهاشميون ثوارا ضد الخلافة الأموية نادوا بتطبيق حكم الله، ووصموا الأمويين بالكفر حين رددوا- بالمعنى الذى ابتدأه الخوارج- الآية «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». وعندما استولى العباسيون على السلطة

قال أبو العباس السفاح فى أول خطبة له، وهى شعار الخلافة، إنهم سيحكمون بما أنزل الله. وبهذا الاتجاه وذلك التقرير بدأت الخلافة العباسية وهى دولة دينية تدعى أنها تقيم كل أركانها على أساس الدين وتزعم أنها تباشر كل أنشطتها من خلال الشريعة. وكانت لذلك نتائج عدة بعضها غاية فى السوء، ونهاية فى الإساءة إلى الدين والشريعة والمسلمين. ذلك أن الحكام استغلوا الصبغة الدينية ليضفوا على أنفسهم عصمة وحصانة فيعبثون ولا مُسَائل لهم ويظلمون ولا راد لظلمهم. ومن جانب آخر فلقد صار إخفاق الدولة إخفاقا للتطبيق الدينى، وظلم الخلفاء والحكم مُسْقَطاً على الإيمان نفسه، وانتهى فساد الحكم إلى أن يلقى بظلاله الكئيبة على القيم والأفكار الدينية التى احتمى بها الفساد أو سوّغته بأى وسيلة.

وتبدو أهم نتائج الدولة الدينية إبان الخلافة العباسية فى استغلال الدين لصالح الحكم، وظهور الحركات السرية الإسلامية، وبزوغ ما يمكن أن يسمى بالاشتراكية الدينية، وفرض صيغ الاعتقاد بمراسيم تصد عن السلطة.

استغلال الدين لصالح الحكم:

أنشأ العباسيون ما يسمى بديوان الزندقة يشرف عليه صاحب أو متولى الزندقة، مثله فى ذلك مثل صاحب الشرطة ومتولى التعذيب.

ومنذ بداية الدولة العباسية صارت ألفاظ مثل زندقة وزنديق وتزندق من مفردات التعامل، ومع أن للزندقة معانى عدة فقد شاع استعمالها بمعنى الخروج على أحكام الشريعة الإسلامية.

وقد وجدت فى العصر العباسى أفكار إلحادية كثيرة وآراء متعددة تضاد تعاليم الإسلام، ومع ذلك فإن عقوبة الزندقة لم تكن تُوقعَ فى الغالب إلا لأغراض سياسية وحين يكون ثَم تهديد للخلافة ذاتها أو طغيان مُبَرّر من الخليفة نفسه.

فبشار بن برد كان ملحدا زنديقا، من شعره الذى يمثل مذهبه:-

لاخير فى العيش إن كنا كذا أبدا ∴ لا نلتقى وسبيل الملتقى نهـــج

قالوا: حرام تلاقينا ! فقلت لهم ∴ مافى التلاقى ولا فى قبلة حرج

ومع ذلك فإن الخليفة لا يضربه حتى الموت بتهمة الزندقة إلا لأنه أهانه واستعدى بنى أمية فقال:-

بنـــى أمية هبوا طال نومـــكم ∴ إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فانتظروا ∴ خليفة الله بين الزق والعود

وأبو نواس كان صريحا فى إلحاده جريئا على الدين؛ من ذلك أنه يقول:-

فدعى الملام فقد أطعت غوايتى ∴ وصرفت معرفتى إلى الإنكار

ورأيت إتيانى اللذاذة والهوى ∴ وتعجلا من طيب هذى الدار

أحــرى وأحـزم من تنظر آجل ∴ علمـــى به رجــم من الأخبار
ما جــا ءنا أحـد يخـبّر أنـــه ∴ فى جنّة مذ مات أو فى النار

ويقول:-

يا ناظــرا فى الدين ما الأمر ∴ لا قـــدر صــح ولا جـــبر
ما صح عندى من جميع الذى ∴ تذكــر إلا المـــوت والقـــبر

ومع ذلك فإنه لا يُمس بسوء، ويعيش هانئا ويموت ميتة طبيعية [٦].

تلك أمثلة فحسب، والأمثلة كثيرة وبعيدة تقطع بأن الزندقة- بمعْنى الميل عن الدين- كانت ادعاء سياسيا أكثر منها اتهاما دينيا.

الحركات السرية الإسلامية :

ونتيجة لأن الدولة دولة دينية تزعم أنها تحكم باسم الله فإن معارضتها لا بد أن تكون على أساس دينى هى الأخرى، تجادل فى أن الحكم يحدث باسم الله حقا، وترفع من جانبها شعار الحكم بما أنزل الله. ولهذا السبب فإن المعارضة الأساسية للخلافة العباسية كانت ثورات الشيعـــة المتصـــلة، وحركــة القرامطــة الشيعـــية الأسمـاعيلية، وحركة الحشاشين الشيعية الاسماعيلية - وهى حركة سرية خالصة.

وعلى ما سلف، فقد بدا فى حركة القرامطة اتجاه واضح لإنهاء الشريعة المحمدية تماما واستبدال شريعة أخرى بها (وما خفى كان أعظم) وهو ما عبر عنه الشاعر فقال :-

خذى الدف ياهذه والعبى ∴ وغنى هزازيك ثم اطربى
تولـــى نبـــىّ بنـى هاشم ∴ وهـذا نبىّ بنـى يعـرب

فالدولة التى تحكم باسم السياسة تُعارض على أرضية السياسة، أما التى تحكم باسم الدين فلا تُعارض إلا على أسس دينية، وفى الحكم باسم الدين من جانب : والمعارضة باسمه من جانب آخر لابد أن تقع تفسيرات كثيرة، سياسية وليست دينية، حزبية وليست شرعية، ربما كانت شاذة أو عليلة أو معتسفة أو خارجة عن الدين نائية عن الشرع.

الأ[illegible]

على الرغم من الإدعاء بأن الخلافة العباسية دولة دينية فلقد انتشر الترف والفساد والبذخ بين الحكام، وأسرفوا فى الإنفاق على أنفسهم وملاذهم وحواشيهم وعلى المغنين والمغنيات والشعراء؛ **ولم يحاول أى خليفة أو حاكم أن يضع نظاما واضحا محددا لرعاية الفقراء والمرضى والمسنين بل تركوا أمرهم لحسنات الناس وصدقات المسلمين**. كذلك لم يوضع أى نظام محدد واضح يكفل الحقوق السياسية والمدنية للرعايا. ونتيجة لهذا كله أن كانت المطالبة بالعدالة الاجتماعية أو الكفاية الاقتصادية مترابطة بالفكر الدينى متواشجة بالطلب الشرعى. فما

دامت الدولة تحكم باسم الدين وبدعوى الشرع فلماذا لا تنشر أعلام الحرية ولم لا توطد أركان العدل؟ وهل يكون العيب آنذاك فى الحرية وفى العدل أم يكون فى التطبيق الدينى الخاطئ؟ من البديهى أن بعض الناس تسقط الخطأ على التطبيق الدينى ذاته، وقد يشتد بعضهم أو يحتد بعض آخر فيرى أن التطبيق الدينى أو أن الدين ذاته لم يضع الضمانات الكافية لحقوق الناس الشخصية والسياسية والاقتصادية، وأنها جميعا موكولة إلى الحاكم الدينى «الخليفة» الذى يطبقها وفقا لهواه، ويضيق على الناس ليوسع على نفسه. وفى المجادلة والمحاورة قد يظهر الرأى بأن التزامات الفرد تجاه الشريعة يقابلها حقوق لهم لابد من استنداثها أولا، أو فى القليل، مع التزامن بين أداء الإلتزامات واقتضاء الحقوق.

من قبيل ذلك ما قاله أحمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيّم، وهو يخلط الفكر الاشتراكى بالدين، أو الحقوق الاقتصادية بالواجبات الدينية :-

تلوم على ترك الصلاة حليلتى ∴ فقلت : اغربى عن ناظرى وأنت طالق
فوالله لا صليت لله مفلسا ∴ يصلّى له الشيخ الجليل وفائق
وناشٌ وبكتاشٌ وكنباشٌ بعده ∴ ونصْر بن مالك والشيوخ البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذى له ∴ سراديب مال حشوها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصليا ∴ لأن له قصرا تدين المشارق
لماذا أصلى ؟ أين باعى ومنزلى؟ ∴ وأين خيولى والحلى والمناطق
وأين عبيد كالبدور وجوههم ∴ وأين جوارىّ الحسان الغوانق؟
أصلى ولا فتر من الأرض يحتوى ∴ عليه يمينى إننى لمنافق
تركت صلاتى للذين ذكرتهُم ∴ فمن عاب فعلى فهو أحمق مائق
بلى إنْ علىّ الله وسّع لم أزل ∴ أصلى مالاح فى الجو بارق
فإن صلاة السىّء الحال كلها ∴ مخارق ليست تحتهن حقائق

فرض الاعتقاد بمراسيم السلطة :

دخلت فكرة خلق القرآن إلى الإسلام تأثرا باليهودية والمسيحية. ففى اليهودية أن التوراة كلام الله، وثم فرقٌ ترى أنه كلام الله المخلوق لأن الله أزلى وكلامه حادث فى الزمن، أى وقع بعد بدء الزمن ومن ثم فهو مخلوق غير أزلى. وفى المسيحية (وفى الإسلام) أن المسيح كلمة الله، وثم فرقٌ ترى أن جسده أو ناسوته حدث فى الزمان، أى وقع فى فترة تاريخية معينة، ومن ثم فهو غير أزلى. وقد بدأت فكرة خلق القرآن خلال الدولة الأموية، وقال بها الجعد بن درهم الذى ذبحه الوالى خالد بن عبدالله القسرى ذبح الشاة صباح يوم عيد الأضحى جزاء

قالته هذه (وكان الجعد قد أخذ فكرته عن أبان بن سمعان الذى أخذها عن طالون بن أعصم اليهودى). وفيما بعد- فى العصر العباسى- تبنى المعتزلة فكرة خلق القرآن، وقالوا إن القول بغير ذلك يتضمن شركا بالله. واقتنع الخليفة المأمون- ومن بعده الخليفتان المعتصم والواثق- بفكرة خلق القرآن. ومع أن الفكرة من فروع العقائد وليست من الأصول، فكرة فلسفية وليست ركنا اعتقاديا، فإن قيام الدولة على أساس دينى سوغ للمأمون أن يفرضها فرضا على المسلمين ويجعلها أساس الاعتقاد وأصل الدين، ومن ثم فقد أصدر كتابا هاما جاء فيه :-

«... قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة- ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق- أهل جهالة بالله وعَمَى عنه، وضلالة عن حقيقته وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين... على أنه (القرآن) قديم أزلى لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه... وقد قال الله عز وجل فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة : «إنا جعلناه قرآنا عربيا» ... ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة... ثم أظهروا.. أنهم أهل الحق والدين والجماعة ... فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال... حتى مال قوم... إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سئ آرائهم... تصنعا للرياسة والعدالة فيهم... وأولئك (أى الفقهاء) شر الأمة ورءوس الضلال... وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق فى أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله، وأحق من يُتهم فى صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد. ومن عمى رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى وأضل سبيلا. ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى قوله، وتخرص الباطل فى شهادته، من كذب على الله فى وحيه ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله.

فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه. فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنظر من بحضرتهم من الشهود على الناس ومسألتهم على علمهم فى القرآن ،

وترك إثبات شهادة من لا يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيها عنده... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك... »

والأساس الدينى لهذا الكتاب قائم- على الأخص- من العبارة التى وردت فيه من أن «أمير المؤمنين قلده الله واستحفظه أمور رعيته»؛ فالخليفة مقلَّدٌ من الله غير مُنصَّبٍ من الرعية، وما يراه هو رأى الله الذى هو صميم الدين، بلا تفرقة بين أصول الاعتقاد وفروعه ، أو تمييز بين الحواشى والجواهر، ومن لا يؤمن به (رأى أمير المؤمنين) لا يوثَق به ولا يُولىَّ ولاية ولا يقلد وظيفة ولا تقبل له شهادة، لأنه ناقص الإيمان غير مكتمل الاسلام.

وقد امتُحن العلماء والفقهاء فى مسألة خلق القرآن ونزل بهم بلاء شديد وعذاب إليهم فقالوا جميعا بخلقه، عدا أحمد بن حنبل الذى أصر على أنه أزلى غير مخلوق. وظلت الحال فى هذه المحنة كذلك طوال عهدى المعتصم (أخ المأمون) والواثق (ابن المعتصم) حتى وُلى المتوكل الخلافة فَعدل عن هذا الاتجاه، ومن ثم انتصر الاتجاه السلفى- بزعامة ابن حنبل- على الاتجاه العقلى الذى قادته المعتزلة. وبالغ أنصار ابن حنبل فى رد فعلهم فدفعوا العقل إلى الوراء كثيرا، فضلا عن قيامهم ببعض الفتن.

وأمر المتوكل الناس بالتسليم والتقليد، أى بعدم التفكير أو التجديد؛ ومن ثم أصبح هذا المنهج هو المسلك العام والطابع الأساسى للفكر الإسلامى : التسليم والتقليد فى كل شئ، وعدم التفكير أو التجديد فى أى شئ. وظل ذلك الطابع وذاك المنهج مستمرا سائدا حتى عصرنا الحالى الذى أصبح تجديد الفكر الدينى فيه ضرورة حياة ولزوم بقاء، وإلا انتهى الأمر إلى عدمٍ وزوال.

وهكذا أدى طابع الدولة الدينى إلى هذه النتائج التى ختمت على العقل الإسلامى بخاتم الجمود ووصمت التاريخ الإسلامى بالعسف والاضطهاد. ومن المؤسف أن يسهم المعتزلة فى ذلك؛ فمع أنهم فرسان العقل وخيّالة المنطق وضباط الفكر، فقد تحولوا إلى طغاة ظالمين بمجرد أن دانت لهم السلطة ووصلوا إلى دست الحكم. وقد رد لهم الحنابلة والعامة الصاع صاعين والكيل كيلين بمجرد أن تمكنوا منهم، فعصف ذلك وذلك بالعقل الإسلامى والتفكير الإسلامى وبكل معانى الحرية والعدالة فى الإسلام.

تعليقات وهوامش

(١) أكثر المراجع المشار إليها فى الفصول السابقة، ويضاف إليها :-

١- آدم متز- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى- ترجمه محمد عبدالهادى أبو ريده.

٢- مصطفى الشكعة - إسلام بلا مذاهب.

٣- عارف تامر- القرامطة - منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.

٤- عبدالحليم الجندى- الإمام الشافعى- دار الكاتب العربى.

٥- ديوان أبى نواس- الحسن بن هانئ - تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالى.

٦-أبو الفرج الاصفهانى- الأغانى.

7- Medieval Islam- a study in cultural Orientation- Gustave E. von grunebaum, chicago university.

8- Ignaz Goldziher, Introduction to Islamic Theology.

9- Alfred Guillame, Islam. a Plican Book.

10- Bernard lewis, The Assassins, a Radical sect in Islam.

(٢) أى أن العباس عم النبى هو من الطلقاء - الذين أطلقهم النبى (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة وأنه من ثم منبت الصلة عن الإسلام، لم يصل إلا خوف السيف (الصمصام). وبهذا يكون المسلمون- لا غيرهم- هم أول من زعم أن بعض الناس قد أسلموا، أو صلوا، خوف السيف. وكان ذلك فى جدال سياسى، لكنه أصبح بعد ذلك قولا عاما وفهما مطردا.

3- Homo Sexuality .

(٤) من العُنة أو العنانة وهى العجز عن الجماع لعيب تكوينى أو اكتسابى فى أعضاء التناسل أو لعدم انتصاب القضيب أو لسرعة ارتخائه بالإنزال قبل الإيلاج أو بعده فورا.

(٥) الشادن ولد الظبيه (المعجم الوسيط مادة: شادن)

(٦) ولم يقتصر الإلحاد على أبى نواس - حتى يكون قولا شاذا مفردا - لكنه كان ديدن البعض، ومنهم أبو العلاء المعرى (٩٧٣ - ١٠٥٧) الذى يقول فى هذا الصدد :

اثنان أهل الأرض : ذو علم بلا ∴ دين وآخر دينّ لاعقل له

ويقول :-

ولا تحسب مقال الرسل حقا ∴ ولكن قول زور سطروه

وكان الناس فى عيش رغيد ∴ فجاءوا بالمحال وكدروه

ومع هذا القول شديد الالحاد ، فإن أبا العلاء المعرى لم يقتل ولكن مات ميتة عادية!

ثبـــت الخلفـــاء

	هجـــرية	ميلادية
١ - المهدى أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢ - القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣ - المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤ - المعز أبو تميم معد (المعز لدين الله الفاطمى)	٣٤١	٩٥٢
٥ - العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦ - الحاكم (بأمر الله) أبو على المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧ - الظاهر أبو الحسن على	٤١١	١٠٢٠
٨ - المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩ - المستعلى أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠ - الآمر (بأحكام الله) أبو على المنصور	٤٩٥	١١٠١
١١ - الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢ - الظافر أبو المنصور اسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
١٣ - الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤ - العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠

شأن الدول شأن الأفراد ، يمر كل منهم بأطوار حتى ينتهى إلى الزوال . طفولة ساذجة ، ثم فتوة عارمة، ثم شباب قوى ، ثم كهولة ناضجة، ثم شيخوخة آفلة. ولئن اختلفت الأحوال بين فرد وفرد ، بين دولة وأخرى ؛ كأن تستطيل فترة أو حالة أو تقصر فترة أو حالة ، فإن النتيجة واحدة والنهاية محتومة . ذلك قانون واحد يسرى على الجميع بلا استثناء، وسنة الكون التى لامهرب منها على الإطلاق.

وكانت الدولة العباسية قد بدأت سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م ، ثم مالبثت - بعد حوالى قرن واحد - أن انحدرت إلى حال الشيخوخة والاضمحلال، واستطالت حالتها تلك حتى انتهت بغزو التتار بغداد وقتل الخليفة المستعصم ؛ أو بغزو العثمانيين مصر، عند من يرى أن الخلافة العباسية فى مصر - رغم ماسلف بيانه عنها - مكملة للخلافة العباسية فى بغداد.

ونتيجة لضعف الخلافة وانحطاطها ، فقد تمزقت بلادها دولا. وكانت الشعوبية (أو القومية) سببا فى استقلال فارس عن دولة الخلافة، فقامت فيها الدولة الطاهرية فى خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ ، ٨٢٠ - ٨٧٢ م) ومنها انتقلت إلى الدولة الصفادية (٢٥٢ - ٢٩٠ هـ ، ٨١٦ - ٩٠٣م)، ثم الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ ، ٨٧٤ - ٩٩٩ م) التى تفرغت منها الدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٧٩ هـ ، ٩٧٦ - ١١٨٣ م) ، إذ كان ألبتكين مؤسس هذه الدولة من الموالى الأتراك الذين استخدمتهم الدولة السامانية.

وكان الأمويون قد استقلوا بالأندلس على يد عبد الرحمن الأول الملقب بعبد الرحمن الداخل (٣٨ - ١٧٢ هـ، ٧٥٦- ٧٨٨ م). وفى المغرب تأسست دولة الأدارسة فى مراكش (١٧٢ - ٣١١ هـ ، ٧٨٨ - ٩٢٣) ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ ، ٨٠٠ - ٩٠٨ م) . وفى مصر كانت دولة الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ ، ٨٦٨ - ٩٠٥م) ثم دولة الإخشيديين (٣٢٣- ٣٥٨ هـ، ٩٣٥ - ٩٦٩م).

وفى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦- ٢٧٩ هـ، ٨٧٠ - ٨٩٢م) انكمشت الخلافة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق وفى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ، ٩٤٠ - ٩٤٤ م) كانت البصرة فى يد ابن رائق، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدين بن بويه، وكرمان فى يد أبى على محمد بن الياس، والرى وأصبهان والجيل فى يد ركن الدولة بن بويه

ويَد كشمير يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيدى، والمغرب وأفريقية فى يد خلفاء عبد الرحمن الناصر الأموى، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى.

وكان بعض هؤلاء الحكام من الشيعة غير السنيين، مثل دولة بنى بويه، وآل حمدان ، وأبى طاهر القرمطى ، مما هدد الخلافة العباسية ذاتها على أساس مذهبى.

وقوى الوزراء فى بغداد ذاتها حتى أصبح الخليفة ألعوبة فى أيديهم ليس له من الأمر شىء. وقد سلف بيان ماقاله الخليفة المتوكل فى هذا المعنى:

أليس من الغرائب أن مثلى ∴ يرى ما قل ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ∴ وما من ذاك شىء فى يديه

كانت قوة بنى بويه الفارسية فى بغداد على أشدها (خلال الفترة من ٣٣٤ - ٤٧٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) وكانوا من الشيعة ففكروا فى عزل الخليفة العباسى ولم يمنعهم من ذلك إلا تخوفهم على أوضاعهم ممن قد يحل محله من الخلفاء الفاطميين.

واشتد البيزنطيون فى هذا الوقت وبدأوا فى غزو الدولة العباسية، وانتصر الامبراطور الرومانى نقفور فوكاس (٣٥٢ - ٣٥٩ هـ ، ٩٦٣ - ٩٦٩م) على العباسيين والحمدانيين ثم على الربضيين. واستطاع الروم فيما بعد أن يستولوا فى سورية على مدينتى المصيصة وطرسوس (٣٥٥ هـ ، ٩٦٥م) ثم حاصروا أنطاكية وحلب واستولوا عليهما. واعترفت بعض هذه البلاد بالتبعية للامبراطورية البيزنطية. واستطاع أحد قواد نقفور (ويدعى جون زيمكسيس) أن يستولى على بعض المدن العريقة مثل الرها وديار بكر ونصيبين الواقعة على نهر دجلة ، ثم امتدت غزوات الروم حتى صحراء بغداد.

وفى الداخل وقعت ثورة الزنج (العبيد السود) واستمرت أربعة عشر عاما (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ ، ٨٦٩ - ٨٨٣ م) وأدت إلى إضعاف وإيهان الخلافة العباسية من الداخل ، بعد أن كانت قد ضعفت ووهنت نتيجة انقسامها إلى دويلات بددتها فرقا، وشعوبية مزقتها شيعا، وكأثر للهزائم التى منيت بها فى الحروب.

وفى مصر كانت تقوم الدولة الطولونية - كما أنف البيان - ثم تبعتها الدولة الإخشيدية. وكان محمد بن طغج الإخشيدى قد قطع الخطبة للخليفة العباسى وذكرها للخليفة الفاطمى، وكانت تلك خطوة تمهد للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين كان أتباعهم قد زادوا فى مصر زيادة كبيرة وأخذوا يدعون لهم جهارا نهارا.

وإذ توفى محمد بن طغج الإخشيدى كان ولده أنوجور قاصرا فآلت الوصاية عليه إلى كافور (العبْد) الملقب بالإخشيدى (نسبة إلى مواليه الإخشيديين). وحصل كافور على موافقة

الخليفة العباسى على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة (وكانتا تتبعان حكم مصر). وبعد وفاة أنوجور - التى قيل إنها تمت بدسيسة من كافور - كان أحمد أخوه صغيرا فحال كافور دون تعيينه واليا. وفى سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسى بتقليده ولاية مصر، فنودى به واليا على مصر ومايليها من البلاد، ودُعى له على المنابر بعد الخليفة.

وظل كافور على رأس الدولة المصرية وبلاد الشام وحاكما للحرمين، زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٥ - ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ) . وكان منحوس الطالع فتعرضت بلاد الشام فى عهده إلى غزوات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كانت فى طريقها إلى الحج (سنة ٣٥٥ هـ)، ووقعت بمصر زلازل وشبّت نيران هائلة دمرت أكثر مدينة الفسطاط. وأغار ملك النوبة على مصر وعاث فسادا فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول ومدينة أخميم (محافظة سوهاج) فأحرق بعض المدن وقتل أهلها ونهب الأموال. وانخفض ماء النيل لمدة تسع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠ هـ) قبل عهد كافور ، وخلاله ، وبعده ، حتى قاست البلاد الأمرين من القحط والأوبئة التي نجمت عن ذلك. واشتد الغلاء وندر وجود الطعام، وفشا الموت حتى عجز الناس عن دفن موتاهم ، وثار الجند الترك والروم على كافور لعدم دفعه رواتبهم وأرزاقهم.

كل هذه العوامل - وغيرها - دفع الفاطميين وساعدهم على غزو مصر، خاصة وقد اعتقد المصريون ، مايعتقدونه دوما، من أن الحكم التالى قد يكون أفضل من الحكم الحالى فيرفع عنهم الشدة ويزيل الغمة .. هكذا بمجرد استبدال حكم بحكم، ودون ما عمل فى ذلك أو أخذ بالأسباب.

* * *

كان الهاشميون (العباسيون والعلويون) قد ثاروا على الخلافة الأموية بدعوى أنها اغتصبت حقهم فى الخلافة ، لأنهم عصبة النبى وورثته (والمسلمون ميراث لهم !!!). ولما سقطت الدولة الأموية استقل العباسيون وحدهم دون العلويين بالحكم. وكانت دعواهم فى ذلك تقوم على أن مورثهم العباس عم النبى هو وارثه عصبة (لفاطمة ابنته النصف فرضا من الأموال التى كانت له وللعباس الباقى تعصيبا . وكانت فاطمة والعباس قد زعما - خلافا لرأى أبى بكر - أن من حقهما وراثة الأموال المخلّفة عن النبى). وإلى جانب ذلك ، فقد ادعى العباسيون أن الخلافة تحولت من بيت على بن أبى طالب الى بيت العباس عم النبى بمقتضى وصية أبى هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية (المتوفى سنة ٦٨ هـ ، ٧١٦م). ذلك أن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك كان قد دعا أبا هاشم هذا إلى دمشق وأظهر له التودد لكنه كان يضمر له الاغتيال ؛ ومن ثم دس له الخليفة من سمه وهو فى طريقه إلى أرض السراة وهى قرية

صغيرة بين الشام والحجاز إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة. وقيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله عرج على محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية وأمده بكتب يسلمها إلى داعى دعاته فى الكوفة ومن يليه من الدعاة، ونزل له عن حقه فى الإمامة ، وأوصى أن يبدأ بث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨م).

ولما استولى العباسيون على السلطة دون العلويين (بحكم الميراث!!) ظل هؤلاء يتطلعون إليها ويتطمّعون فيها ويرنون الى الخلافة ، فقاموا بثورات عدة على العباسيين انتهت كلها بالفشل والإخفاق ، ومن ثم اتجهت الدعوة العلوية إلى العمل فى الخفاء والتحرك فى الظل حتى تقى نفسها بطش الخلفاء وكيما تضمن عدم إجهاضها فى كل حين.

وممن عملوا فى السر والخفاء عبد الله بن ميمون القداح (نسبة إلى قدح العيون باجراء عملية جراحية تزيل المياه البيضاء منها). ودعا عبد الله بن ميمون هذا إلى عبيد الله المهدى. واتجهت أنظار عبيد الله بن ميمون إلى المغرب، لبعدها عن مقر الخلافة فى بغداد ، ولوجود دول شبه مستقلة بها، وربما لقربها من مصر، ومن ثم فقد أرسل إليها أبو عبد الله الشيعى (٢٨٥ هـ - ٩٤٥ م) حيث حارب ابراهيم بن الأغلب. وفى سنة ٢٩١ هـ استقر الشيعة فى المغرب ونجحوا فى إقامة دولة لهم فسافر إليهم عبيد الله المهدى ودعى له يوم جمعة بمدينة رقادة . وما إن استقر الحكم لعبيد الله المهدى حتى قتل أبا عبد الله الشيعى وأخاه (كما فعل العباسيون من قبل مع أبى مسلم الخراسانى!!؟). واستطاع المعز لدين الله الفاطمى (الخليفة الرابع) أن يقضى على دولة الأدارسة (فى تونس) بعد أن حكمت زهاء قرنين . وبسقوط دولة الأغالبة ثم دولة الأدارسة دانت بلاد المغرب كلها للفاطميين، فتطلعوا إلى حكم مصر.

كانت مصر مطمعا للفاطميين كما كانت مغنما لغيرهم ، لأن ولاتها كانوا يحكمون المدينتين المقدستين مكة والمدينة (ibso facto) هذا فضلا عن مكانة مصر فى العالم الإسلامى، وثروتها العظيمة ، وتاريخها المجيد، وموقعها الفريد.

وحاول الفاطميون غزو مصر مرات عديدة منذ أن بدأت دولتهم (سنة ٢٦٧ هـ ، ٩٠٩ م)، فغزوها فى السنوات ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ، ثم ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) ، ثم ٣٢١ - ٣٢٤ هـ (٩٦٨ - ٩٦٩ م)، ثم نجحوا أخيرا حيث دُعى للخليفة الفاطمى على المنابر فيها (شهر محرم سنة ٣٥٩ هـ).

وساعد الفاطميين على غزو مصر أن المسلمين فيها كانت ميولهم مع علىٍّ بن أبى طالب منذ أحداث الفتنة الكبرى. فخلال هذه الفتنة مال أهل البصرة إلى واليهم طلحة بن عبيد الله وجنح أهل الكوفة إلى واليهم الزبير بن العوام؛ أما أهل مصر فقد شايعوا علىٍّ بن أبى طالب. ولعل من أسباب ذلك أن محمد بن أبى بكر (عديل الحسين بن على بن أبى طالب) عاش فى

مصر زمنا ، وكان بها خلال تلك الفتنة ، حتى قتل بها فيما بعد. ومن جانب آخر، فقد كان كافور الإخشيدى - لضعفه وخوفه من الغزاة الفاطميين - قد تلقى بالقبول دعاتهم الذين قدموا عليه من قبل المعز لدين الله الفاطمى للاعتراف بسيادته . ودعا كافور كثيرا من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته إلى تقديم الولاء إلى الخليفة الفاطمى. وعزْمُ كافور الإخشيد على تحويل طاعته من العباسيين إلى الفاطميين كان أمرا مختمرا فى ذهنه، أدت إليه حالة مصر الداخلية فى سنى حكمه مما دفعه الى الاعتقاد بأن عهد الاخشيديين قد آذن بالزوال، وهو أمر سهل للفاطميين غزو مصر من الخارج بعد أن كانت قد غزيت من الداخل.

وعندما استقر الفاطميون فى مصر أسسوا مدينة القاهرة لتكون عاصمة لهم بدلا من الفسطاط ثم شرعوا فى غزو الشام، فحدث بينهم وبين القرامطة نزاع بسبب ذلك، فقد كانت دمشق تدفع الجزية إلى زعيم القرامطة ردحا من الوقت ، ثم انقطعت هذه الجزية عن القرامطة بعد استيلاء الفاطميين على الشام . ووقعت حرب بين الحسن القرمطى الملقب بالأعصم والمعز لدين الله الفاطمى من جراء ذلك. وفى الحرب ، انتصر القرامطة فترة وهددوا مصر ذاتها ثم هُزموا فيما بعد.

واستقر سلطان الفاطميين فى مصر والشام والحجاز. وأدى بعدهم عن المغرب إلى أن يفقدوها . فقد أعلن استقلال افريقية (تونس) بلكين بن زيرى بن مناد شيخ صنهاجة إحدى قبائل البربر، وأسس الدولة الزيرية سنة ٣٦٢ هـ ، ثم حذا الحماديون حذوه سنة ٣٩٨ هـ. وفى سنة ٤٤٣ هـ خلال عهد الخليفة المستنصر زال الحكم الفاطمى عن كل بلاد المغرب .

* * *

والخلافة الفاطمية مثلها مثل الخلافتين الأموية والعباسية كانت خلافة وراثية ، يتوارثها الابن عن أبيه أو تؤول إلي الأقرب عصبة من الخليفة. ويطلب الخليفة بعد أن يولّى بيعة الناس فمن أبى أو اعترض أو تمهل كان السيف جزاءه والقتل عقابه.

ولم يستطل سلطان الخلفاء؛ فمنذ الوهلة الأولى كانت السلطة الحقيقية فى يد الوزراء . ثم تعاظمت سلطة الوزراء مع الوقت حتى زالت الدولة الفاطمية ذاتها. وكان أغلب هؤلاء الوزراء من غير العرب ؛ فجوهر الصقلى - الذى غزا مصر - مولى من صقلية، وبدر الدين الجمالى كان أرمنيا وكذلك ابنه الأفضل الجمالى. وهذه السطوة التى كانت للوزراء أدت بهم إلى أن يتلقبوا بالملوك ، فكان الوزير ملكا، ومن هؤلاء الوزراء الملوك الملك رضوان والملك الصالح (ابن رزيك) والملك الأفضل وغيرهم. وحدث فى عهد الخليفة الحافظ أن الوزير أحمد بن الأفضل الملقب بالأكمل ، استهانة بأمر الخليفة، شله عن التصرف ثم عزله ومنع ذكر اسمه فى الخطبة (فى الجمعة والعيدين). ومن ناحية أخرى فقد أدت سلطة الملك (الوزير) الواسعة وسلطانه المطلق وقدرته على الأموال والأعناق ، أدى ذلك إلى أن يتنازع كثير على الوزارة

وأشهر نزاع ذلك الذى حدث بين شاور وضرغام، فأدى إلى استعداء حاكم الشام نور الدين بن زنكى وتدخله فى شئون مصر (مما انتهى إلى إنشاء الدولة الأيوبية فيما بعد) ، كما أدى إلى الاستعانة بالفرنجة ، وهو الذى طمعهم فى مصر ويسر لهم دخولها.

فقد تنازع على الوزارة (أو على الملك) شاور والى الصعيد وضرغام أمير البرقية (جنود من برقة) . ولما لم يستتب الأمر لأحدهما، طلب شاور معونة نور الدين بن زنكى صاحب الشام كما طلب مساعدة الفرنجة (من الصليبيين) الذين كانوا منذ عهد المستعلى قد بدأوا يغيرون على سواحل الشام بسبب استثارة الحاكم بأمر الله لهم (كما سوف يلى). وأرسل ابن زنكى قائده أسد الدين شيركوه على رأس جيش إلى مصر فيه صلاح الدين الأيوبى ابن أخى هذا؛ غير أن شيركوه ترك مصر للفرنجة (الصليبيين) مقابل ٥٠.٠٠٠ دينار ، فعاد هؤلاء إلى احتلال مصر. ثم وُلى صلاح الدين الوزارة خلفا لعمه شيركوه فحارب الفرنجة حتى أجلاهم عن مصـــر.

وكان صلاح الدين الأيوبى سنيا ، فأسند المناصب الدينية فى مصر إلى الفقهاء السنيين فبدأ نفوذ السنة يتزايد. ولما سقطت سلطة الخليفة العاضد وصارت إلى الحضيض رغب نور الدين بن زنكى فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى ، وتردد صلاح الدين، غير أن رجلا من فارس قام ودعا للخليفة العباسى (أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ، ١١٧١م). وتوفى الخليفة العباسى فى العاشر من المحرم دون أن يعرف هذا الذى حدث بعزله. بذلك سقطت الدولة الفاطمية وعادت مصر ولاية فى الخلافة العباسية بعد انقطاع دام مدة قرنين وثمانى سنوات.

* * *

وكان أغلب الخلفاء الفاطميين – كغيرهم من الخلفاء – حديثى السن لم يبلغوا مبلغ الحكمة والحنكة قبل أن يولوا الحكم ، وبعضهم وُلى ومات طفلا لم يصل إلى مرتبة الشباب. فالمعز لدين الله الفاطمى وُلى الخلافة وعمره حوالى أربعين سنة وتوفى وعمره يزيد على الخامسة والأربعين ببضعة شهور، والعزيز وُلى الخلافة وعمره ثمانية عشر عاما وتوفى وعمره اثنان وأربعون عاما، والحاكم بأمر الله ولى الخلافة وعمره أحد وعشرون عاما وتوفى وعمره ستة وثلاثون عاما وبضعة شهور. والمنصور وُلى الخلافة وعمره خمس سنوات وبضعة أشهر وتوفى وعمره حوالى أربعة وثلاثين عاما، والفائز وُلى الخلافة وعمره خمس سنوات ومات وعمره أحد عشر عاما.

والخلافة الفاطمية كانت ، بكل مقياس ، ومن أى جانب ، تهديدا للخلافة العباسية وانتقاصا لها. فإن تكن هى على حق فالعباسية تكون على باطل، وإن تكن العباسية على أصول فالفاطمية تكون على ضلال . لذلك يرى بعض المؤرخين أن الخلافة الفاطمية عدوان

على الخلافة الإسلامية ولاتعد خلافة اسلامية بأى حال. وقد بلغ تهديد هذه الخلافة للخلافة العباسية أن دُعى للخليفة المستنصر على منابر بغداد لمدة سنة ، وكان قد دُعى للمعز لدين الله الفاطمى بمكة بينما ظلت الدعوة فى المدينة للمطيع العباسى.

وذهب تخوف العباسيين من الفاطميين الى أن حثوا الروم البيزنطيين على انتزاع بلاد الشام منهـم.

الخلافة المؤلهة

كان من شأن القهر والضغط والكبت الذى لحق بالعلويين إبّان الخلافتين الأموية والعباسية أن لجأوا إلى التقية والسرية والباطنية.

فقد كان على العلوى الشيعى أن يظهر غير ما يبطن وأن يعلن غير ما يخفى ، وربما قال ما لا يؤمن به أو تكلم بما لا يعتقد فيه ، تقية من الإيذاء وحماية من الضرر ووقاية من القتل، حتى صارت التقية مبدأ من مبادىء الشيعة وأصلاً من أصولهم. وروى فى ذلك عن الإمام جعفر الصادق (الإمام الشيعى السادس) أنـه قال : التقية دينى ودين آبائى ؛ وقال : من لا تقية له لا دين له .

وانتهج العلويون الشيعة فى الدعوة إليهم أساليب سرية ومناهج خفية وتعاليم رمزية حتى لا ينكشف أمرهم، أو يُصدم بدعوتهم من يدعى إليها ؛ ومن ثم تعين ألا يعرف دعوتهم إلا من يوثق فيه، حتى يضمنوا الذيوع والإنتشار دون ما ضربات تُجهض أو حملات تفنى .

واتبع العلويون الشيعة فى تفسير القرآن نظام الباطنية [٢] ، فكانوا - وما زالوا - يقولون إن كل آية قرآنية لها معنى ظاهر يتبعه أهل السنة ومعنى باطن لا يعرفه إلا أئمة الشيعة يلقنونه أتباعهم بدرجات وفقا لاستعداداتهم. ومن هذا التفسير الباطنى تكون لهم تراث كامل يكاد يخالف، بل ويناقض، كل التراث السنى من أكبر كبائره حتى أصغر صغائره. [٣]

وفى هذا الجو المنتشر من التقية والسرية والباطنية كان يمكن أن يعمل شخص مجهول أو جماعة غامضة أو هيئة سرية لأغراض معينة، بادعاء الشيعية، دون أن يكشف الأمر أو تتضح الحقيقة . هكذا ظهر عبدالله بن ميمون القداح الاسماعيلى . والاسماعيلية فرقة شيعية تخالف الإمامية فى أنها تدعى أن الإمام جعفر الصادق نص على أن تكون الخلافة لابنه اسماعيل (الإمام السابع فى هذا الاعتقاد) والذى اختفى حال حياة والده، ،وصار أخوه موسى الكاظم هو الإمام السابع فى سلسلة أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.

وعبدالله بن ميمون القداح لا يُعرف له نسب على وجه التحقيق، طالما كان الخفاء حريا بإخفاء كل حقيقة. فثم من يقول إنه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق تسمى باسمه ذاك تقية وخفاء. وثم آخرون يقولون إن عبدالله بن ميمون كان يهوديا انتهز أسلوب الشيعة فى

العمل السرى والخفى ودخل فى الدعوة الاسماعيلية يتخذها حيلة لضرب الإسلام وتغيير شريعته. وآخرون يقولون إن عبدالله بن ميمون تزوج من أرملة يهودى وأنجب منها أبا محمد عبيد الله المهدى (الخليفة الفاطمى الأول). وفريق غيرهم يرى أن أبا محمد عبيد الله المهدى هذا هو ولد اليهودية من زوجها اليهودى وأنه ليس ولد عبد الله بن ميمون القداح،وإنما لحظ عليه ميمون النجابة فتبناه ودعا إليه بالخلافة.

والاتجاه الذى يقول إن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ الدعوة الاسماعيلية سبيلا لهدم الاسلام وتقويض شريعته يقول فى ذلك إنه كان من كبار الشعوبية رجل موسر جدا اسمه محمد بن الحسن جهار يسكن بنواحى الكرج وأصبهان، وأنه كان يبغض العرب ويذمهم ويجمع معايبهم، فكان كل من طمع فى نواله تقرب إليه بذم العرب. وسمع به عبد الله بن ميمون القداح فسار إليه وتفاتحا الحديث وأظهر عبد الله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عند الشعوبى فاشتد اعجابه به واستغرب أن يعمل بالطب (لا بالدعوة) فقال عبد الله له : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه، ألقيه فى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام.. وقال : لاتظهر مافى نفسك للعرب... والزم التشيع والبكاء على أهل البيت فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ويقولون هذا هو الإسلام. وسب أبا بكر وعمر، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام، فإنك إذا سببتهما سببت صاحبهما، فإذا استوى لك الطعن عليهما فقد اشتفيت من محمد، ثم تعمل بعد ذلك فى استئصال دينه.

ويتساند هذا الرأى إلى أنه ظهر من عبد الله بن ميمون لبعض من اختارهم التعطيل (أى تعطيل الفروض) والإباحة (أى إباحة المحرمات) والمكر والخديعة فأذاعوه، فثارت به الشيعة والمعتزلة ومن ثم فر إلى البصرة وأقام فى أسرة عقيل بن أبى طالب مدعيا انتماءه إليهم، ولما حامت حوله الشبهات رحل إلى الشام وأقام فى سلمية إلى أن مات بها (مابين سنتى ٢٧٠ - ٢٧٤ هـ).

هذا المطعن الخطير فى أهل العبيديين (نسبة إلى أبى محمد عبيد الله المهدى أول الخلفاء) الذين تسموا بالفاطميين (نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت النبى صلى الله عليه وسلم) والمَجرحُ الغائر فى نسبهم ذهب إليه الخلفاء العباسيون وقالوا به. ففى شهر ربيع الآخر من سنة٤٠٢ هـ (١٠١١م) كتب الخليفة القادر العباسى محضرا فى معنى الخلفاء المصريين (الفاطميون) والقدح فى أنسابهم وقرئت النسخ ببغداد وأخذت عليها خطوط (توقيعات) القضاة والأئمة والأشراف. وجاء فى هذا المحضر عن الفاطميين «..هم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى، إخوان الكافرين، ونطف الشياطين... (شهدوا جميعا «الموقعون»)أن الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم- حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال- ابن معد بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن سعيد.. الذى لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى، هو ومن

تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس- عليه وعليهم اللعنة- أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، وأن ذلك باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحدا من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعا بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلّس على أحد كذبهم، أو يذهب إلى وهم تصديقهم، وأن هذا الناجم بمصر (الخليفة الفاطمى) هو وسلفه كفار وفساق وفجار وزنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، فقد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادّعوا الربوبية...»

وقد تكرر هذا المعنى فى محضر آخر حرر سنة ٤٤٤هـ، سنة ١٠٥٢م؛ ومحضر ثالث حرر سنة ٤٨٨هـ ، سنة ١٠٥٦م.

هذا هو رأى أمراء المؤمنين الخلفـــاء العباسيين فى أمراء المؤمنين الخلفـــاء الفاطميين. فلئن صح فإن الخلافة الفاطمية خارجة عن الإسلام وخارجة على الشريعة، ولئن لم يصح فإن الخلافة العباسية تكون قد تردت فى تكفير أمراء المؤمنين الخلفاء الفاطميين والطعن على نسبهم واتهامهم بكل كبيرة!!

والذى ذهب اليه الخلفاء العباسيون عن الخلفاء الفاطميين كان شائعا بين المصريين ذائعا بين المسلمين (كما قالوا) وعبر عنه المصريون شعرا. فعندما صعد إلى المنبر الخليفة العزيز فى يوم جمعة أوائل أيام خلافته رأى ورقة كُتب عليها :-

إنـا سمعنا نسبا منكرا ∴ يُتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا ∴ فأذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن تُرد تحقيق ما قلته ∴ فأنسب لنا نفسك كالطائع(٤)
أو فدع الأنساب مستورة ∴ وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم ∴ يقصر عنها طمع الطامع

ما جاء فى محاضر الخلفاء العباسيين عن الخلفاء الفاطميين- وخاصة ادعاء الربوبية- يجد له أصلا فى تصرف هؤلاء . فقد أجترءوا على الألوهية وادّعوا مقام الربوبية، كما خرجوا على المواضعات الإسلامية، وجنحوا إلى تقويض الشريعة ذاتها، بل وجهر القرامطة (وهم اسماعيلية) بذلك.

فعندما وصل أول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدى إلى المغرب ودخل مدينة رقادة خاطبه الشاعر ابن هانئ الأندلسى قائلا :-

حل برقادة المسيح ∴ حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى ∴ حل بها الكبش والذبيح

حل بها الله ذو المعالى ∴ وكل شئ سواه ريح

بهذا تكون الخلافة قد ابتدأت وهى تزعم أن الخليفة هو الله ذاته، وأنه كذلك أحمد المصطفى (محمد صلى الله عليه وسلم) والمسيح وآدم ونوح واسماعيل (أو اسحاق الذبيح)، وهو اجتراء شديد على الإسلام وافتراء واضح على الله.

وكان من نتيجة هذا الافتراء وذلك الاجتراء أن كانت صيغة أيمان أهل أفريقية تقوم على صيغة تأليه الخليفة و فتقول «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة»

وغالى ابن هانئ الأندلسى فى أشعاره التى ينسب فيها الألوهية والنبوة إلى الخلفاء، فقال عن المعز لدين الله الفاطمى:-

هو علة الدنيا ومن خلقت له ∴ ولعلة ما كانت الأشياء

ولك الجوارى المنشآت مواخرا ∴ تجرى بأمرك والرياح رخاء

فعنت لك الأبصار وانقادت لك الـ ∴ أقدار واستحيت لك الأنواء

لا تسألن عن الزمان فإنه ∴ فى راحتيك يدور حيث تشاء

ويقول عن ذات الخليفة :-

ندعوه منتقما عزيزا قادرا ∴ غفار موبقة الذنوب صفوحا

اقسمت لولا أن دعيت خليفة ∴ لدعيت من بعد المسيح مسيحا

شهدت بمفخرك السماوات العلى ∴ وتنزل القرآن فيك مسيحا

ويقول :-

ما شئت لا ماشاءت الأقدار ∴ فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمد ∴ وكأنما أنصارك الأنصار

هذا الذى تجدى شفاعته غدا ∴ حقا وتخمد أن تراه النار

ويقول :-

وروح هدى فى جسم نور يمده ∴ شعاع من الأعلى الذى لم يجسّم

فأقسم لولم يأخذ الناس وصفه ∴ عن الله لم يعقل ولم يتوهم

ويقول :-

هذا مَعَدُ والخلائق كلها ∴ هذا المعز متوجا والدين

هذا ضمير النشأة الأولى التى ∴ بدأ الإله وغيبها المكنون

النـــور أنـت وكـل نـور ظلمـة ∴ والفـوق أنت وكـل فـوق دون

فارزق عبادك منك فضل شفاعة ∴ واقرب بهم زلفى فأنت مكين

ويقول :-

لو أبصرك الروم يومئذ دَرَت ∴ أن الإله بما تشاء كفيل

ويقول :-

هذا ابن وحى الله تأخذ هديها ∴ عنه الملائك بكرة وأصيلا

وما قاله ابن هانئ الأندلسى لم يكن مجرد قول شاعر، بل كان اعتقاد الخلفاء وإيمان المعز لدين الله، فلقد كتب المعز خطابا شهيرا إلى حسن الأعصم القرمطى عندما اختصما على جزية الشام جاء فيه :-

«من عبدالله ووليه، وخيرته وصفيه.... رسوم النطقاء، ومذاهب الأئمة والانبياء، ومسالك الرسل والأوصياء... صلوات الله علينا.. إن الله عز وجل إذا أراد أمراً قضاه، وإذ قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين، أن خلقنا أشباحا، وأبرزنا أرواحا، بالقدرة مالكين، وبالقوة قادرين، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا شمس تضئ، ولا قمر يسرى، ولا كوكب يجرى، ولا ليل يجن، ولا أفق يكن، ولا لسان ينطق، ولا جناح يخفق، ولا ليل ولا نهار، ولا فلك دوار، ولا كوكب سيّار، فنحن أول الفكرة وآخر العمل .... ما فى الآفاق من معجزات، وأقدار باهرات.. من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم، وظاهر وباطن، ومحسوس وملموس... كل ذلك لنا، ومن أجلنا، دلالة علينا، وإشارة إلينا... ونحن ننتقل فى الأصلاب الزكية، والأرحام الطاهرة المرضية.. وكل ذلك دلالات لنا، ومقدمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا... فما من ناطق نطق، ولا نبى بُعث، ولا وحى ظهر، إلا وقد أشار إلينا.. إنا كلمات الله الأزليات، واسماؤه التامات، وأنواره الشعشعانيات،وأعلامه النيرات، ومصابيحه البينات، وبدائعه المنشآت، وآياته الباهرات، وأقداره النافذات، لا يخرج منا أمر، ولا يخلو منا عصر، وإنّا لكما قال الله سبحانه وتعالى «ومايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شئ عليم».

وقد ادعى الحاكم بأمر الله الألوهية وكان أصحابه عندما يرونه فى الطريق يركعون ويصيحون قائلين : أنت الواحد الأحد والمحيى والمميت.

وقبل أن يتأله كان الحاكم بأمر الله قد رسم للخطباء أن يقولوا فى الخطبة «اللهم صلى على محمد المصطفى وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى. اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين. اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك (خليفة الله!!)

وفى خطبة منبرية من عهد الحاكم بأمر الله جاء «.. اللهم اجعل نوامى صلواتك، وزواكى بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان، وحصن الإيمان ، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية ، عبدك ووليك أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين، وأكرمت أجداده المهديين. اللهم وفقنا لطاعته ، واجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشرنا فى حزبه وزمرته. ».

وفيما يتعلق بالشريعة ، فإن عبيد الله المهدى أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبى وأزواجه عدا على بن أبى طالب والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى، وزعم أن أصحاب النبى ارتدوا بعده غير هؤلاء ، وأمر الفقهاء أن يفتوا بمذهب.. منه إحاطة البنات بالميراث(٥).

وأمر الخليفة القائم أبو القاسم بن عبيد الله بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الغار ومن لاذ به.. وكان يكاتب أبا طاهر القرمطى (لأن الفاطميين والقرامطة جماعة اسماعيلية واحدة) وقد نصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف ، واستجاب أبو طاهر الجبابى لذلك فاعتدى

[redacted]

وكانت للفاطميين عقائد مذهبية فلسفية مؤداها أن عدد الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة، ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ويكون له ظهيرا فى حياته وخليفة له بعد وفاته. وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو المساعدون هم: الأساس ثم الصامتون، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد من أولهم. ولابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاد دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى قبله، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون بعدهم نبى ناسخ يقوم بعده سبعة .. وهكذا حتى يقوم النبى السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله، وهو صاحب الزمان الأخير. وفى اعتقادهم أن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو عبد الله بن ميمون، وأنه اتخذ هذا الاسم تخفية له وتعمية عنه، وأن شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) ستنسخ بهم.

ونتيجة لهذا المعتقد فقد صرح القرامطة بنسخ شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) وجهروا بذلك إذ قال شاعرهم البهاء الجندى عن على بن فضل القرمطى:

خذى الدف ياهذه والعبى ∴ وغنى هزازيك ثم اطربى

تولـــى نبىّ بنـى هاشـم ∴ وهذا نبى بنى يعـرب

ولربما كان للعداوة الشديدة والخصومة العنيفة بين العباسيين والفاطميين مايدفع العباسيين وأنصارهم الى المغالاة فيما نسب لبعض الخلفاء الفاطميين ، لكن اختلاق كل التاريخ وابتداع كل الواقعات ونحل كل الأقوال أمر من الصعوبة بمكان، هذا فضلا عن وجود بعض الوثائق الثابتة كالمحاضر التى حررها العباسيون والاشعار التى ذكرها ابن هانئ الأندلسى والكتاب الصادر عن المعز لدين الله الفاطمى وتصرفات الحاكم بأمر الله والأفعال التى صدرت عن القرامطة، والمعتقد الدرزى والمعتقد النزارى، وهى أمور تتضافر معا لتجعل مانسب إلى الفاطميين فى جوهره صحيح ثابت ، وأدنى إلى الحقيقة وأقرب إلى الصواب.

الاضطراب الدينى

يتسم عهد الخلافة الفاطمية بالاضطرابات الدينية الظاهرة. ولعل مرد ذلك عدم وجود سياسة مرسومة للخلفاء الفاطميين ، وعدم وضوح آرائهم ومعتقداتهم. فلأنهم باطنيون يخفون الآراء ويضمرون المعتقدات ويعملون فى السر ويتصرفون فى الخفاء ، فإن نتائج تصرفاتهم بدت وكأنها متذبذبة بغير سبب ظاهر متأرجحة دون مبرر مفهوم؛ مع أنها قد تكون متسقة وفقا لمخططهم السرى، مفهومة تبعا لأهدافهم المضمرة، متسلسلة مع نواياهم الخفية.

من مظاهر هذا الاضطراب ، التى أعلنت مرات، وأخفيت مرات، اعتقادهم أن روح الله، أو أن الله ذاته يتجسد فى الخليفة ، وأن الخليفة يحوز صفات الله ويحرز أسماءه؛ وهو اعتقاد يخالف الإسلام تماما ويجانب الإيمان كلية. هذا فضلا عن اجترائهم على لعن الأنبياء ، والصحابة ، واستعمالهم ألفاظا وعبارات لاتسمح بها التقاليد الإسلامية ولاتجيزها القواعد الشرعية.

وقد عملوا على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) ولعن غيرهم من الصحابة، إذ عدوهم جميعا أعداء لعلى. وكان الخطباء يلعنون هؤلاء الخلفاء والصحابة من كافة المنابر ، ونقشت فضائل على وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد بينما نقش سب الصحابة على جدران الجامع العتيق (جامع عمرو) فى الداخل والخارج وعلى أبواب الحوانيت والحجرات وفى المقابر.. وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمن يمتدح أى خليفة من الخلفاء السنيين.

وألزم الفاطميون جميع الموظفين المصريين اعتناق المذهب الفاطمى الاسماعيلى، وحتموا على القضاة إصدار أحكامهم وفقا لهذا المذهب، وهو أمر دفع كثيرا من الموظفين المسلمين إلى اعتناق المذهب الشيعى، كما أدى إلى تحول بعض أهل الذمة عن مللهم واعتناق الإسلام ، واتباع المذهب الفاطمى الاسماعيلى بالذات، لكى يتولوا وظائف فى الدولة.

واشتد الفاطميون على أهل السنة ومنعوهم من إقامة مراسمهم. وضرب الخليفة العزيز رجلا مصريا وشّهر به فى المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ للفقيه السنى مالك بن أنس.

أبطل الخليفة العزيز صلاة التراويح (سنة ٣٧٢ هـ ، ٩٨٢ - ٩٨٣م) من جميع مساجد مصر، وكانت قد أبطلت فى سوريا؛ وذلك على اعتبار أن الذى نظم هذه الصلاة هو عمر بن الخطاب. وعندما صلى إمام مسجد صلاة التراويح فى عهد الحاكم بأمر الله أمر به فضُرب عنقه. ومنع الفاطميون صلاة الضحى ، وهى من صلوات السنة التى لايعترف بها الشيعة، وشهّروا بجماعة ضبطت وهى تصلى هذه الصلاة.

وأمر الحاكم بأمر الله أن تقام صلوات الظهر والعصر وفقا لمواعيد محددة وليس تبعا لأوضاع الشمس. وأصدر مرسوما يجيز للناس صوم رمضان وفطر شوال بمقتضى حساباتهم الفلكية من غير تحقق رؤية الهلال.

واعتزم الحاكم بأمر الله نبش قبرى أبى بكر وعمر فى المدينة، ورشا رسلا لهذا الغرض. وكاد ينجح لولا أن اكتُشفت المؤامرة وأُحبطت.

وحاول الحاكم بأمر الله هدم كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت محاولته من أسباب الحروب الصليبية، إذ استفزت المسيحيين الغربيين فهبوا فى حرب دينية للذود عن أحد مقدساتهم، إذ يعتقدون - كما يعتقد كل المسيحيين - أن الكنيسة قد أقيمت فى المكان الذى يقال ان السيد المسيح صلب ودفن فيه ثم قام منه.

وادعى الحاكم بأمر الله الألوهية ، وخوطب صراحة بعبارات وأوصاف الجلالة- على نحو ماسلف - مما أدى إلى نشوء العقيدة الدُّرزية التى لم تزل قائمة فى بعض أنحاء الشام. وإذ رفض الوزير الأفضل الجمالى تنصيب نزار بن المستنصر خليفة لأنه كان قد سبه يوما من قبل وفاة أبيه؛ فقد نشأت عن ذلك عقيدة النزارية التى ترى أحقية نزار بالخلافة ، وكان الحشاشون على هذا المعتقد . فكأن مسألة الخلافة (أو الإمامة) - أى الشئون السياسية - أدت أصلا إلى نشوء المذهب الاسماعيلى (الفاطمى) اعتقادا بأن اسماعيل بن جعفر الصادق هو الأولى بالإمامة من شقيقه موسى الكاظم، ثم نشوء المعتقد النزارى ادّعاء بأن نزار بن المستنصر أولى بالخلافة ، هذا فضلا عن العقيدة الدرزية . أى أن الاسماعيلية شقوا عن الإسلام ثلاث فرق : فرقتهم الاسماعيلية (ومنها القرامطة) ، وفرقة الدروز ، وفرقة النزارية.

وتميز عهد الخلافة الفاطمية عموما بمحاباة غير المسلمين من أهل الذمة اليهود والمسيحيين . ففيما عدا فترة من عهد الحاكم بأمر الله نزلت بهم محن شديدة ، فقد كان منهم الوزراء والمستشارون والقادة مثل عيسى بن نسطوروس وأبى نجاح وبهرام وفهد بن ابراهيم ومنشا اليهودى وأبو سعيد التسترى وغيرهم. وتزوج الخليفة العزيز زوجة مسيحية فصار أشد عطفا على المسيحيين ، وعين أخويها بطريقين للأسكندرية وبيت المقدس.

ووجد المسلمون المصريون من ميل الخلفاء الفاطميين إلى غير المسلمين، ومحاباتهم، وتوليتهم المناصب الكبرى، فكتب أحدهم شكاية للعزيز جاء فيها «بالذى أعز النصارى

بعيسى بن نسطوروس واليهود بمنشا بن ابراهيم الفرار، وأذل المسلمين بك. إلا نظرتَ فى أمـرى!»

وصاغ البعض مرارتهم تلك فى أبيات من الشعر تقول:

يهـود هذا الزمـان قد بلغوا ∴ غاية آمالهم وقد ملكوا

العـز فيهـم والمـال عندهـم ∴ ومنهم المستشار والملـك

يا أهل مصر قد نصحت لكم ∴ تهودّوا فقد تهود الفلك.

وأدت ضغوط المسلمين على الخلفاء ، وكثرة الشكوى والتعريض ، واضطراب عقل الحاكم بأمر الله إلى أن ينكب اليهود والنصارى وأن يشتد على كبار موظفيه منهم ويحملهم على الإسلام. وألزم المسيحيين لبس الغيار (أى المغايرة لثياب المسلمين) واشترط أن تكون ثيابهم وعمائهم شديدة السواد. ومنعهم من الاحتفال بأحد الشعانين وعيد الصليب وعمل الغطاس علي ضفاف نهر النيل وإظهار الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم. وقبض على محابس (أوقاف) الكنائس والأديرة وأدخلها فى الديوان، وأحرق كثيرا منهم ومنعهم من شراء العبيد والإماء، وهدم بعض الكنائس وأباح مافيها للناس لنهبها، ومنعهم من ركوب الخيل والاقتصار على ركوب البغال والحمير بسروج ولُجُم غير محلاة بل من جلود سود ، ومنع دق أجراس الكنائس في القاهرة ، وحظر على المكارية (الحمارين) والنوتية (المراكبية) نقل أى ذمى. واشترط أن يضع الرجال من المسيحيين صلبانا من الخشب فى أعناقهم ، تكون زنة الصليب خمسة أرطال ، وأن يضع اليهود فى أعناقهم قطعة خشب مدورة بذات زنة صليب المسيحيين. ثم ألزم الجميع – بعد ذلك – الخروج من أرض مصر فرحلوا الى بلاد الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) وإلى بلاد النوبة والحبشة؛ ومن بقى منهم دخل فى الإسلام. وعندما تغيرت سياسة الحاكم عاد بعض من تم نفيهم من قبل وارتدّ منهم فى يوم واحد سبعة آلاف شخص.

* * *

من القواعد التى أظهرها حمزه وزير الحاكم بأمر الله وداعيه إلى عقيدته الجديدة التى أصبحت تعرف بالدرزية أن الله واحد ، وألوهيته لاتدركها العقول، وقد ظهر للبشر عدة مرات فى ناسوته (أى جسده) ثم ظهر لهم أخيرا باسم الحاكم فعمل من الأعمال مالا يدركه العقل البشرى، وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ، ثم اختفى فلا يظهر إلا بعد مجيئه الأخـير.

فإذا كان ذلك هو الإسلام، فلقد فارق الإسلام الإسلام، وخالف الإيمان الإيمان ، وأصبحت عقائد مثل الإسماعيلية (والقرمطية) والدرزية والنزارية أقرب إلى معتقدات أخرى منها إلى شريعة الإسلام وأدخل فى لاهوت آخر ، فضيه الإيمان بعيسى المسيحى

أحوال الخلافة

تعمل الدول جميعا، فى الماضى والحاضر ، بأسلوب شبه متقارب ، أسسه واحدة ، سواء كانت تُدعى خلافة أو تسمى ملكية أو إمارة أو جمهورية أو غير ذلك . وهذا الأسلوب يستهدف، فى الغالب، بقاء نظام الحكم واستمرار ثباته. ومن أجل هذه الغاية يُعنى الحكام ما أمكن بأحوال الرعية (وهو الوصف الذى كان يُطلق على الشعب فيما مضى) أو أحوال المواطنين (كما يسمون فى العصر الحالى) حتى يعود ذلك على النظام عودا حسنا بالاستقرار الذى يثبت مراكز الحكام، وتحصيل الضرائب التي لاغنى عنها للانفاق على نظام الحكم، وعلى القوة العسكرية ، وعلى ما يعد- فى عصره- مرافق عامة . وقد يفلح النظام ، أو تساعده الظروف، فيحقق أمنا ورخاء؛ وقد يفشل، أو تخونه الظروف ، فينتهى إلى عكس ذلك . فهدف الحكومة الأساسى - وخاصة فى العصور الماضية- أن تحقق الأمن الذى يبقيها وتصل الى الرخاء الذى يغنيها، فإذا ما عاد على الرعية (فى الماضى) خير من ذلك فهو تابع لخير نظام الحكم وليس العكس. وإذا كانت الأمور قد تغيرت فى العصور الحالية وعرفت الشعوب حقوقها، وصار لها صوت مسموع ورأى فعّال ، وأصبحت نظم الحكم - فى الغالب - تعمل فى خدمة أهداف المواطنين ، فإن ذلك لم يكن هو الأصل فى الأيام الخالية والنظم البائدة ، وحتى القرن الماضى بالنسبة لبعض الدول ، والقرن الحالى بالنسبة لبعضها الآخر. ونتيجة لهذا المعنى، فكثيرا ما كان الناس يربطون ما بين خيرهم وخير الحاكم ، فإذا كان مسعود الطالع عاد ذلك عليه وعليهم بالخير ، وإن كان منحوس الطالع رجع ذلك عليه وعليهم بالشر. بهذا ارتبط كل خير لهم وكل شر عليهم بشخص الحاكم . فإذا أعسرت الأحوال رجوا تغييره، وإذا أيسرت دعوا ببقائه. وهم فى الحالين سلبيون محايدون لايبتدرون تصرفا ولاينزعون إلى عمل ولايتجهون إلى تغيير ، بل يقتصر كل فعلهم وغاية تصرفهم على مجرد الدعاء إلى الله والأمل فى أن يستجيب إلى دعائهم .

بفهم هذه القواعد يمكن فهم حال الخلافة الفاطمية ، وحال كل خلافة أو ملكية أو إمارة أو جمهورية، وخاصة فى العصور البائدة. فمن طبائع الحال وبدائه الأمور أن يسعى الخلفاء الفاطميون إلى تحقيق أمن لهم وغنى بتحقيق أمن المواطنين ورخائهم. ولقد نجحوا - كما نجح غيرهم فى ذلك - مرات ، ولكنهم فشلوا - كما فشل غيرهم - مرات أكثر .

وإذا ما كانت نظم الحكم المدنية أحيانا ما تكون شديدة الوطأة على المواطنين لمنعهم من الثورة عليها ولابتزاز أموالهم كضرائب ، فإن نظم الحكم الدينية غالبا ماتكون عنيفة الوطأة على الرعايا تعمل عمل الدولة المدنية بصورة أقسى وبأسماء دينية.

وهذا المثل والتطبيق يبدو واضحا فى الخلافة الفاطمية كما ظهر من قبل فى الخلافة

العباسية ، وكلتاهما ادعت انها خلافة دينية . فهذه الخلافة - وتلك - لم تقم على أركان الدين ولم تنشر قيمه ولم تستقر على مبادئه ، فتكون مثلا ومثالا للدولة التى تؤسس على الدين فتجعل من قيمه فى العدالة والحرية والرحمة والمساواة تحقيقا لمجتمع أفضل من أى مجتمع آخر ، وترفيعا للانسانية كأرقى ماتكون الإنسانية، وإنشاء لدولة أعدل وأحسن من أى دولة أخرى. على العكس ، ظهرت هذه الدولة الدينية بما لايفرقها عن أى دولة أخرى ولا يميزها عن أى نظام آخر ؛ وزادت على ذلك أن تمت المظالم باسم الدين ووقعت المذابح تحت راية الشريعة ، وحدث اضطهاد دينى ومذهبى عنيف، لايحدث عادة فى الدولة المدنية، وانتهت الخلافة الفاطمية إلى شق ثلاث فرق عن الإسلام هى : الاسماعيلية (ومنها القرامطة)، والدّرزية ، والنزارية. وأضعفت جبهة المسلمين حين تنازعت هى والخلافة العباسية ، واستعدت عليهم الفرنجة والصليبيين. ثم زالت بعد ذلك فتنفس الناس الصعداء وذهبت فى زوايا التاريخ إلى غير رجعة.

ولم يبق من آثار الخلافة الفاطمية إلا نزعات شيعية اسماعيلية عند بعض عوام المسلمين فى مصر ، تقدس الأئمة وترفع الأولياء (الموتى) وتبالغ فى النظرة إلى أى عالم فى الدين أو أى مدّع بذلك ، وهى أمور تشوه صورة الإسلام الصحيح وتلوث وجه الإيمان الحق ، وتحول دون التقدم والسمو والارتقاء.

هوامش وتعليقات

(١) أغلب المراجع السابقة ، ويضاف إليها : -

1 - Encyclopedia Britannica; Macro, 1977 ; vol . 9 ; P. 932 .

2 - Encyclopedia Americana ; vol . 11; P. 50 .

3 - Ignaz Golziher; Introduction to Islamic Theology and Law, Translated by Andras and Ruth Hamori .

4 - Bernard Lewis; The Political Language of Islam.

5 - Bernard Lewis; The Assassan .

٦ - تاريخ مصر المعروف باسم « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » - ٣ أجزاء .

٧ - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدول الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية .

٨ - ديوان ابن هانىء الأندلسى (بيروت)

٩ - على مبارك ، تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

١٠ - أبو حامد الغزالى ، فضائح الباطنية .

١١ - محمد كامل حسين ، أصل الشيعة وأصولها .

١٢ - محمد عبد الله عنان ، الحكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - القاهرة ١٩٥٩ .

١٣ - محمد كامل حسين ، طائفة الدروز : تاريخها عقائدها - دار المعارف بمصر .

(٢) فضائح الباطنية ، المرجع السابق .

(٣) وفى ذلك قال الكلينى أحد كبار فقهاء الشيعة : كل ماخالف إجماع أهل السنة فهو صحيح .

(٤) الطائع هو الخليفة العباسى الرابع والعشرين : الطائع لله أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع .

(٥) أى أن يرث البنات (أو البنت) كل التركة إذا لم يوجد ولد؛ والقصد من المبدأ تبرير وراثة فاطمة للنبى، وخلافته ، وتوريثها من بعد إلى ذريتها دون غيرهم .

ثبت السلاطين

	هجرية	ميلادية
١- عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه	٦٨٠	١٢٨١
٢- أورخان الغازى	٧٢٦	١٣٢٥
٣- مراد الأول	٧٦٢	١٣٥٩
٤- بايزيد الأول	؟	؟
٥- محمد جلبى الغازى	٨١٢	١٤١٠
٦- مراد الثانى	٨٢٤	١٤٢١
٧-محمد الثانى	٨٥٥	١٤٥١
٨- بايزيد الثانى	٨٨٦	١٤٨١
٩- سليم الأول بن بايزيد	٩١٨	١٥١٢
١٠- سليمان بن سليم	٩٢٦	١٥١٩
١١- سليم االثانى	٩٧٤	١٥٦٦
١٢- مراد الثالث بن سليم	٩٨٢	١٥٧٤
١٣- محمد خان بن مراد	١٣٠٠	١٥٩٤
١٤- أحمد بن محمد خان	١٠١٢	١٦٠٣
١٥- مصطفى بن محمد خان	١٠٢٧	١٦١٧
١٦- عثمان بن محمد خان	١٠٢٨	١٦١٩
١٧- مصطفى بن محمد خان (للمرة الثانية)	١٠٣١	١٦٢٣
١٨- مراد الرابع بن أحمد	١٠٣٢	١٦٢٣
١٩- ابراهيم الأول بن أحمد	١٠٤٩	١٦٤٠
٢٠- محمد الرابع بن ابراهيم	١٠٥٨	١٦٤٨
٢١- سليمان خان الثانى	١٠٩٩	١٦٨٧
٢٢- أحمد الثانى بن ابراهيم	١١٠٢	١٦٩١
٢٣- مصطفى الثانى بن محمد الرابع	١١٠٦	١٦٩٥

٢٤- أحمد بن محمد	١١١٥	١٧٢٩
٢٥- محمود خان الأول	١١٤٣	١٧٥٠
٢٦- عثمان الثالث	١١٦٨	١٧٥٤
٢٧- مصطفى الثالث	١١٧١	١٧٥٧
٢٨- عبد الحميد بن أحمد	١١٨٨	١٧٧٤
٢٩- سليم الثالث	١٢٠٢	١٧٨٩
٣٠- مصطفى الرابع بن عبد الحميد	١٢٢٢	١٨٠٧
٣١- محمود الثانى بن عبد الحميد	١٢٢٣	١٨٠٨
٣٢- عبد المجيد خان بن محمود خان	١٢٥٤	١٨٣٩
٣٣- عبد العزيز بن محمود خان	١٢٧٧	١٨٦١
٣٤- مراد بن عبد المجيد خان	١٢٩٣	١٨٧٦
٣٥- عبد الحميد الثانى بن عبد المجيد	١٢٩٣	١٨٧٦
٣٦- محمد الخامس	١٣٢٧	١٩٠٩
٣٧- محمد السادس	١٣٣٧	١٩١٨
٣٨- عبد المجيد الثانى	١٣٣٩	١٩٢٠
* فصل السلطنة عن الخلافة	١٣٤١	١٩٢٢
* الغاء الخلافة	١٣٤٣	٣ مارس ١٩٢٤

السلطنة العدوانية

كانت أصول الترك أخلاطا تجمعت من لفيف من قبائل متباينة فى الأخلاق والعادات، ميالة بطبيعتها إلى العدوان بالغزو والغارات، جافية الخلق متوحشة السلوك. وفى سنة ٧٤٤م استظهرت عليهم قبيلة فجمّعتهم، ثم اعتنقوا الإسلام فيما بين القرنين التاسع والعاشر الميلادى. وقد ظلوا لطبيعتهم العدوانية - ورغم الإسلام - فى حروب مستمرة وغارات مستعرة فى كل اتجاه ومع كل شعب، حتى مع الخلافة الإسلامية والبلاد الإسلامية.

وقد ترأس الترك عدد من الزعماء انتهوا إلى الأمير عثمان الذى يعد المؤسس الحقيقى للدولة العثمانية، ومنه أخذت اسمها.

حاربت الدولة العثمانية الامبراطورية البيزنطية ومملكتى بلغاريا وصربيا، واستولت سنة ١٤٥٣ - فى عهد محمد الثانى - على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية (وهى الاستانة حالا) فورثت أملاك هذه الامبراطورية. ثم غزت - فى عهد سليمان الثانى - معظم بلاد اليونان والجزائر والمجر، وكثيرا من أنحاء فارس وبلاد العرب؛ وصارت ولايات ترنسلفانيا والأفلاق والبغدان إيالات خاضعة لها. واستولت - كذلك - على كثير من أملاك الخلافة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكستين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام، ودولة المماليك فى مصر والشام، ودولة الأتابكة فى الموصل؛ وكثير من دول أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة أفريقيا وجزائر بحر الروم وغيرها.

ومع الانتصارات بدأت الهزائم، وبعد النجاح دخل الأفول، وإثر الفتوحات توالت الانكسارات. فقد هُزم الأسطول العثمانى سنة ١٥٧١ بواسطة الأسطولين الأسبانى والبندقى. واضطر العثمانيون إلى رفع الحصار عن ڤيينا سنة ١٦٨٣، وأكرهوا على عقد معاهدة كارلو ونزو سنة ١٦٩٩ حيث نزلوا عن بلاد المجر وممتلكات أخرى. ودخلت الدولة العثمانية فى حروب مع الروسيا فى القرن الثامن عشر فضاعف ذلك من انهيارها ومُنيت بهزائم كثيرة. وضاعت منها طرابلس فى حربها مع الإيطاليين (١٩١١ - ١٩١٢م). وأعلنت صربيا وبلغاريا ورومانيا استقلالها وكونت مع اليونان حلفا بلقانيا شن على الدولة العثمانية حربا حامية خسرت فيها معظم ماتبقى لها من أراض فى أوروبا... ثم بدأ الانهيار الأخير فى الحرب العالمية الأولى أمام ضربات البريطانيين والجيوش العربية فى العراق وفلسطين وسوريا. وبمقتضى معاهدة سيڤر انتُزعت منها كل أملاكها.

وبنهضة الروسيا تحت حكم قيصرها بطرس الأكبر، وببدء انحلال الدولة العثمانية فى مطلع القرن الثامن عشر ساد انجلترا وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) خوف من نتائج التوسع الروسى وهزائم العثمانيين، إذ تخوفت بريطانيا من أن يكون توسع الروسيا تهديدا لمصالحها الكبيرة بالهند، وخاصة أن الروسيا - مع ضعف الدولة العثمانية - بدأت ترسم خطة للاستيلاء على مضايق البسفور ومدينة القسطنطينية (الآستانة) وأن تبسط امبراطورية النمسا نفوذها على الأرضى البلقانية. ومع تتابع الحروب بين الروسيا والدولة العثمانية اكتسبت الروسيا بمقتضى صلح بوخارست سنة ١٨١٢م بعض المكاسب فى البحر الأسود. وبمقتضى صلح أدرنة اعترفت الدولة العثمانية باستقلال اليونان. وطالب قيصر روسيا بحق حماية الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية، فتحالفت انجلترا وفرنسا لمد يد المعونة إلى هذه الدولة التى أصبحت تعد رجل أوروبا المريض. وفى سنة ١٨٧٨م وبمقتضى معاهدة سان ستيفانو أملت الروسيا على الدولة العثمانية شروطا صعبة. وفى سنتى ١٩١٢ - ١٩١٣ نشبت الحروب البلقانية التى انتهت بتمزيق أوصال الامبراطورية العثمانية فى أوروبا. وعلى ماسلف البيان اكتمل انهيار الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى.

وفيما يتعلق بمصر فإن فرنسا غزتها سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) فلم تصد الدولة العثمانية هذا الغزو ولم تساعد على التخلص منه. ثم غزت بريطانيا مصر بحملة فريزر سنة ١٨٠١م ودفعها المصريون وحدهم دون أى مساعدة من الدولة العثمانية (دولة الخلافة؟). وفى سنة ١٨٨٢ احتلت بريطانيا أرض مصر دون أن تقفها الدولة العثمانية أو تحاربها أو تتخذ أى إجراء لإزالة الاحتلال وإنهاء الاستعمار البريطانى.

وهكذا فإن الدولة العثمانية لم تكن دولة نصر دائم أو نجاح أبدا، وإنما كان شأنها كشأن أى دولة محاربة، يتداولها النّصر والهزيمة ويتعاورها النجاح والفشل ويتغايرها الاقدام والاحجام. وبعد أن نجحت وانتصرت بضع سنين، فشلت وانهزمت سنوات بعدها. وكانت فى فتوتها رجل أوروبا القوى فصارت فى شيخوختها رجل أوروبا المريض. وعاشت أقل من قرنين فى شبه نجاح، ثم استمرت قرنين فى فشل مؤكد.

خلافة أم سلطنة ؟

نشأت الدولة العثمانية، واستقرت بعيدا عن الخلافة الإسلامية التى كانت قد اختُلقت وافتُعلت فى مصر بعد سقوط بغداد بفترة، على ماأنف بيانه. ولم تكن الدولة العثمانية - مع ذلك - فى توافق أو تساكن مع (مظاهر) الخلافة العباسية، بل ظلت تغير على أملاكها ودولها وتقتطعها منها لتضيفها إليها هى. وفكر العثمانيون أكثر من مرة فى غزو مصر - مقر الخلافة - والاستيلاء عليها، إلى أن نجح فى ذلك السلطان سليم الأول - تاسع سلاطين

الدولة العثمانية - سنة ١٥١٧م وشنق طومان باى ملك مصر آنذاك (من المماليك) وانتهت بهذا دولة المماليك الثانية (بعد مااستمرت فى حكم مصر ١٢١ سنة وكانت جملة سلاطينهم أو ملوكهم ٢٢ شخصا).

والسلطان سليم هذا شخصية سوء بكل معيار وليس شخصا سويا بأدنى درجة. من دلائل ذلك أنه تآمر على والده السلطان بايزيد حتى اضطره إلى خلع نفسه فتولى هو السلطنة سنة ١٥١٢م (٩١٨هـ). وعندما استولى على مصر لم يكن الخليفة (المتوكل) أعز لديه من والده فقبض عليه ليحمله معه إلى القسطنطينية، وقبل أن يخرج من مصر نزع منه الخلافة قهرا، ولبس شعارها فى احتفال كبير، وبذا خرجت الخلافة من بنى العباس إلى آل عثمان، وبمعنى أصح خرجت بقايا الخلافة وفر شبهها من بيت ادعى العباسية إلى شخص لم يقصد أن يكون خليفة، بل استهدف اللهو والعبث، واستكبر أن يكون فوق رأسه رأس أو أعلى من سلطانه خلافة (وبهذا تنازل من لم يكن «خليفة» إلى من كان يستحيل أن يكون «خليفة»).

* * *

هل سقطت الخلافة الإسلامية عند استيلاء التتار على بغداد (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م)، أم سقطت عندما أكره السلطان سليم مدعى الخلافة العباسية على التنازل عنها (أم سقطت قبل ذلك أو بعد ذلك)؟

إن التقدير السليم حينما يرجئ الإجابة عن وقت سقوط الخلافة إلى حين، إنما يقطع بأنها لم تنتقل إلى العثمانيين انتقالا شرعيا أو تتحول إليهم تحولا سليما. فالدولة العثمانية كانت قد قامت واستقرت قبل أن تدعى انتقال الخلافة إليها وتحولها إلى بيتها، وذلك على العكس من كل خلافة سابقة ابتدأت أصلا كخلافة ثم سارت مع الزمن خلافة أيضا (ولو كانت فاسدة وناقصة وغير إسلامية فى الحقيقة). ومن جانب آخر فإنه لايسوغ بأى معيار شرعى أو أى تبرير فقهى اعتبار مافعله السلطان سليم من اعتداء على مصر - مقر الخلافة - وإكراه الخليفة على التنازل له عنها عملا سليما وتصرفا صحيحا تنتقل به الخلافة فعلا، دون أن يتأذى الفهم الدينى ويتضرر الفكر الشرعى. إن ماحدث كان عدوانا صارخا على الدين وتقويضا حادا للشرعية، لا تنتقل به سلطة ولا تقوم به خلافة (إسلامية !!). يؤيد ذلك أن الحكام العثمانيين لم يتلقبوا قط بلقب الخلافة وإنما ظلوا يلقَّبون بالسلاطين حتى سقطت دولتهم سنة ١٩٢٤، كما كانوا يعتبرون دولتهم سلطنة حتى وإن خلطوا بين السلطنة والخلافة. فعندما حدثت الثورة العرابية فى مصر صدر مرسوم من صدر الدولة إلى الأمير (الخديوى) محمد توفيق جاء فيه «بناء على أن الخطة المصرية هى من الأجزاء المتممة لجسم **أملاك السلطنة العثمانية**، وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار إنما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الأمن والعمارة فى **الممالك**». ولم تكن السلطنة تلجأ إلى فكرة الخلافة إلا إذا هددتها ثورة أو حركة داخلية لتستخدم الدين فى ضرب الثوار أو المتمردين، وتستغل فكرة الخلافة فى القضاء عليهم أدبيا، مما يسهل أمر عزلهم أو يُيسر شأن اغتيالهم. مثال ذلك ماحدث عندما خرج محمد على الكبير والى مصر

وابنه إبراهيم على السلطان فقد وجه هذا أسئلة إلى المتحدثين باسم الدين والممسكين بعصا الشريعة يقول فيه «ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر **بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين**؟... ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة **خليفته وسلطانه**؟.. هل يكون الخليفة مسئولا عن دم ذلك المارق أمام الله والناس!؟» وكان الرد عليه: «ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذوهما فى شق **عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين**». ومع هذه الفتوى إلى لجئ فيها إلى فكرة خلافة رب العالمين، فإن السلطان لم يستطع تنفيذها وعفا فيما بعد عن محمد على وابنه. وهكذا كان أمر الفتوى وشأن العفو سياسة لادينا، وعبثا لا جدا.

إن الدولة العثمانية فى التقدير السليم غير العليل وفى الفهم المؤسس غير المتلبّس بدأت سلطنة، واستمرت سلطنة، وانتهت وهى سلطنة. فهى لم تكن خلافة قط، ولم تكن شرعية أبدا، ولم تكن إسلامية إلا ادعاء !. وهى لم تركن إلى الخلافة إلا فى فرض سلطانها على رعاياها باسم الدين، وفى قهر خصومها فى الداخل بدعوى الشريعة، وفى منع أى معارضة لها بالتلويح بسيف الإسلام.

والفهم الخاطئ والادعاء غير الصحيح بأن الدولة العثمانية خلافة إسلامية سحب على المسلمين كل مساوئها وأسقط عليهم كل خصوماتها وأوقعهم فى نتائج عدوانيتها. فنتيجة لحروبها المستمرة مع الامبراطورية البيزنطية ثم الامبراطورية النمساوية ثم القيْصرية الروسية ثم بلاد البلقان، نتيجة لذلك كله، فقد تكونت مشاعر معادية للترك، وظل المسلمون يسمون تُركا فى تقدير مواطنى هذه البلاد وغيرها، ومازالوا كذلك لدى الكثيرين، فأسقطت كراهية الترك من سوء فعالهم - التى عانى منها المسلمون أنفسهم - على المسلمين فى كل مكان. ونتيجة لحروب الدولة العثمانية مع تلك البلاد واحتلال كثير من أجزائها أن دخلت هذه البلاد فى حروب مع الدولة العثمانية، والمسلمين من رعاياها، وما إن بدرت لها البوادر وسنحت لها السوانح، حتى ردت الكرة فاحتلت بلاد الدولة العثمانية تباعا، وبذلك سقطت أغلب البلاد الإسلامية فى طواحين الاستعمار وفى رحى البلاد الغربية، فدفعت الثمن من أرواح ودماء مواطنيها ومن كرامة ومستقبل بلادها، وكان مادفعته قوائم الحساب «فواتير» الدولة العثمانية التى كانت مستحقة عليها منذ أمد طويل.

ومن جانب آخر، فإن البعض يعتبر أن الدولة تكون دينية والسلطنة تعد خلافة والحكومة تعتبر إسلامية إن هى طبقت أحكام الشريعة الإسلامية (التى يخلطونها بالفقه وهو من صنع البشر وليس من عمل الله). فإذا كان ذلك هو المعيار - فى تقدير البعض - فإن الدلائل كثيرة والأمثلة شتى على أن السلطنة العثمانية لم تطبق الشريعة الإسلامية ولم تحفل بها إلا ادعاء، ولم تعمل مبادئ الدين الإسلامى ولم تعتد إلا بالقشور منه. وثم مثال واحد صارخ على ذلك

يغنى عن كل مثال آخر. ففى سنة ٩٢٨ هـ رسم السلطان سليمان (القانونى !!) بإبطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف فى القضاء بالديار المصرية وسلم جميع الأحكام لقاض واحد من قضاة الروم هو قاضى العسكر، بحيث لاتصح عقود أو أوقاف أو وصايا أو عتق أو إجارة أو حجة أو غير ذلك حتى تعرض على قاضى العسكر الرومى. ومنذ ذلك الوقت زالت ولاية الأحكام الشرعية عن قضاة مصر (الأربعة، حسب المذاهب السنية) كزوال الخلافة والسلطنة، وآلت إلى قضاة الروم يتناوبها الواحد منهم بعد الواحد فتبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت من طور الشريعة والفقه الإسلامى إلى طور آخر مغاير.

وكان القانون فى السلطنة العثمانية يعد تعبيرا عن إرادة السلطان وليس تعبيرا عن إرادة الله أو إرادة الأمة، ومن ثم فقد كان القانون - أى قانون - يسقط بموت السلطان الذى أصدره، وإذا استمر العمل ببعض قواعد هذا القانون بعد ذلك، فمن باب تطبيق قواعد عرفية غير ملزمة لا إعمال قواعد قانونية ملزمة. وكان القضاة - فى مصر مثلا - يُعينون من عاصمة الامبراطورية فى الآستانة - شأن قاضى العسكر - ولايعُطَوْن مرتبات بل كانوا يقتضون رسوما على القضايا التى ترفع إليهم فيحصلون منها على رواتب لهم ويدفعون لدولة الاحتلال العثمانية مابقى ومايلزم من رشوة لتجديد ولايتهم.

وكان القضاة يفصلون فى المواد المدنية فقط. ولم تطبق الحدود (العقوبات الواردة فى القرآن) طوال فترة الاحتلال العثمانى لمصر (١٥١٧ - ١٩١٤م) إلا مرتين فقط فى مناسبتين لم يُعمل فيهما القضاة المبدأ الإسلامى الذى يدعو إلى درء الحدود بالشبهات. وفى مسائل التعزير (وهى أغلب العقوبات) كان عمل القضاة يقتصر على تحقيق الدعوى ثم يُترك أمر الحكم وتنفيذه للوالى أو للشرطة. وكان اختصاص القاضى - حتى فى مجرد التحقيق - مقصورا على الواقعات التى يكون فيها طرفان للخصومة، أما أى واقعة تتصل بأمن الدولة أو أمن الحكام (أى ليست خصومة بين طرفين) فإن الحاكم أو نوابه كانوا هم ولاة الأمر - دون القضاة - فى التحقيق وتقدير العقوبة وتنفيذها، وليس للقضاة أى صلة أو دخل فى ذلك.

الصراع على الخلافة

كان من نتيجة هزائم السلطنة العثمانية أمام الروسيا وغيرها، وضعفها فى الخارج ووهنها فى الداخل، أن أصبحت تسمى رجل أوروبا المريض، فقد تكاثرت عليها النّصَال وتحلق حولها الوحوش؛ ونشأ بذلك مايسمى بالمسألة الشرقية التى تتأدى فى تخوف دول أوروبا عامة وبريطانيا خاصة من زحف الروسيا على بلاد الشرق الأوسط واحتمال تهديد مصالح شتى الدول الأخرى. وشرعت هذه الدول - وخاصة بريطانيا - فى البحث عن حل للمشكلة العثمانية والمسألة الشرقية، وكان من تلك الحلول حل مَـلأ رأس جلادستون البريطانى.

وجلادستون (وليم ايوارت ١٨٠٩ - ١٨٩٨) كان زعيما لحزب الأحرار - أحد الحزبين الرئيسيين فى بريطانيا فى وقته - وقد عين رئيسا للوزراء أربع مرات خلال الفترة من ١٨٦٨ حتى ١٨٩٤؛ وكان متخصصا فى دراسة العلاقة بين الدولة والكنيسة، أو السلطة المدنية والسلطة الروحية، ووضع فى ذلك كتابا عنوانه «الدولة وعلاقتها بالكنيسة». ونتيجة للمفهوم المسيحى لديه، والفكر العلمانى الذى يقوم على ضرورة الفصل بين الكنيسة (ورجال الدين) وبين الدولة (الحكومة)، فقد نشأت لديه فكرة فصل الخلافة عن السلطنة ونقلها إلى أحد البيوت العربية، وخاصة البيت القرشى الذى كان يمثله حكام مكة (ومنهم الشريف حسين).

وأدرك السلطان عبد الحميد الثانى أن سحب الخلافة منه، ومن سلاطين آل عثمان، مقدمة لتقويض دعائم ملكهم. ذلك أنه مع الهزائم التى منيت بها الدولة العثمانية، والضعف الذى ران عليها، والشيخوخة التى أوهنتها تماما، فإن الركون إلى الخلافة كان وحده هو السبيل لبقاء الامبراطورية العثمانية، وعدم انسلاخ الدول الإسلامية، وخاصة الدول العربية، منها. فبالخلافة وحدها تظل الدولة العربية تابعة للسلطنة العثمانية، وبدونها لا يكون ثم مبرر لبقاء هذه التبعية. ومن هنا صارت قضية الخلافة قضية أساسية لبريطانيا وللدولة العثمانية سواء بسواء، ودخل العامل الدينى حلبة السياسة كما اقتحمت المصالح على الشريعة أبوابها، وبدأ الصراع الأوروبى - العثمانى يتركز فى مسألة الخلافة ويأخذ صبغة دينية ويرتدى عباءة شـــرعية.

وفى ذلك الوقت انحصر الصراع على الخلافة فى بقائها فى يد السلطنة العثمانية، وهو ماكان يعمل له السلطان عبد الحميد الثانى، أو فى انتقالها إلى بيت عربى كما كانت تؤمل بريطانيا (وغيرها من الدول).

وهذا الذى دان به جلادستون وظل يكتب له ويخطب ويحض ويحرض أقنع أحمد مدحت باشا الصدر الأعظم فخلعه السلطان عبد الحميد من منصبه، كما اقتنع به جدا شخص بريطانى سوف يكون بالغ الأهمية فى هذا الصدد وفى تاريخ مصر الحديث هو بلنْت (ولفريد سكاون ١٨٤٠ - ١٩٢٢). ومن هذا الوقت حشد كل من الطرفين قواه لعقد مؤتمرات إسلامية، بعضها ممول من السلطان للدعوة إلى إبقاء الخلافة فى سدته، وبعضها ممول من جوانب أخرى للدعوة إلى استبعاد الخلافة من مسند السلطان.

مؤتمرات الخلافة

عندما ظهرت فكرة عقد مؤتمر إسلامى للخلافة كان الداعى لها البريطانى بلنت، **قصد إقامة نظام دينى سياسى فى البلاد الإسلامية السنية**، واصلاح الشريعة الإسلامية (!!) اصلاحا جذريا من خلال مؤتمرات إسلامية متتابعة. ودخل الحلبة بعض المسلمين منهم جمال الدين

الأفغانى الذى دعا إلى عقد مؤتمر إسلامى فى استانبول عاصمة السلطنة العثمانية لجمع كلمة المسلمين واعلان الحرب المقدسة، فضلا عن المقاطعة الاقتصادية، ضد أى دولة تعتدى على أرض إسلامية. وفى هذا الحماس للسلطان العثمانى أو ضده ظهرت الأفكار والعبارات التى كان لها أثر بالغ فيما بعد مثل تسييس الدين، وتجديد الشرع، والجهاد، والمقاطعة، وتكتيل المسلمين فى جماعة ضد غيرهم.. وهكذا.

وفى مصر حيث كانت دعوة كل من بلنت والأفغانى إلى إقامة مؤتمر إسلامى قد اشتدت إبّان الاحتلال البريطانى أقيم أول مؤتمر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧. وكان الذى أقام هذا المؤتمر اسماعيل جاسبرنسكى، وهو مسلم روسى، كان قد أسْهَم من قبل فى ثلاثة مؤتمرات إسلامية أقامتها الروسيا بين سنتى ١٩٠٥، ١٩٠٦. وفى مؤتمر القاهرة ظهر الخلاف واضحا بين من يريدون بقاء تبعية مصر للدولة العثمانية - تحت اسم الخلافة - ومن ينشدون استقلال مصر.

وفى نوفمبر سنة ١٩١٤ بعد أن قامت الحرب العالمية الأولى صدرت فى الاستانة عدة فتاوى تدعو المسلمين فى كل مكان للاسهام فى الجهاد المقدس مع الدولة العثمانية ضد أعدائها. وتلقف أعداء هذه الدولة تلك الفتاوى لاقناع المسلمين بأن السلطان العثمانى يستغل الدين للايقاع بهم فى حروب طاحنة لاناقة لهم فيها ولا جمل.

وفى يوليو سنة ١٩٢٤ عُقد مؤتمر، سمى مؤتمر الحج، فى مكة إبان موسم الحج، ودعى فيه بالخلافة للشريف حسين؛ غير أن هذه المبايعة لم تنته إلى مبايعة عامة فى العالم الإسلامى.

وفى سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر القاهرة حيث طمع الملك فؤاد ملك مصر فى أن يبايَعَ بالخلافة، وانتهى المؤتمر بالفشل. وفى ذلك قال الشيخ الظواهرى شيخ الجامع الأزهر آنذاك «دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم.. شكوك من جهة مصر.. فقد ظنوا أن علماء الأزهر.. إنما يثيرون مسألة.. الخلافة لغرض آخر.. هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين».

ثم عقد فى ذات السنة، سنة ١٩٢٦، مؤتمر العالم الإسلامى، عقده فى مكة الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣) الذى كان حديث العهد باعتلاء عرش السعودية.

وفى سنة ١٩٣١ عقد المؤتمر الإسلامى العام فى القدس.

وفى سنة ١٩٣٥ عقد المؤتمر الإسلامى الأوروبى فى جنيف.

وبعد ذلك قامت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ فانقسم المسلمون أثناءها بين مؤيدين لدول المحور (ألمانيا وايطاليا) ومؤيدين للحلفاء (العالم الغربى وبريطانيا أساسا)؛ وكل يؤمل مما يفعل نصر اتجاهه الإسلامى !!

وكل هذه المؤتمرات والمحالفات والمشايعات لم تنته إلى نتائج محددة أو تصل إلى قرارات فعالة. وخلالها، وقبلها، وبعدها، ظهرت أفكار هامة وبدت اتجاهات كانت ومازالت وسوف يظل لها أثر كبير فى العالم الإسلامى وفى العالم أجمع.

أولا - فلقد بدأ تسييس الإسلام بصورة جديدة، سوف تصل مع الأيام إلى أن تظهر صيغة الإسلام السياسى التى تهدد الإسلام نفسه من الأساس وتصبغه بصبغة سياسية حربية شكلية لفظية. وقد بدأ ذلك يلوح فى الأفكار والكتابات التى طرحت مبكرا. من ذلك ماكتبه الهندى عبد الله سندهى (١٨٧٢ - ١٩٤٤) من أن «الجماعة الإسلامية (المزمع إقامتها) جماعة خاصة تقوم على أسس عسكرية...» وهو أمر تبناه الإسلام السياسى وصار سمته الأساسية.

ثانيا - وزج بالخلافة - أو رياسة المسلمين - فى معترك الصراع السياسى ومجتلد النزاع الحزبى، فأصبحت تتجاذبها تيارات من ذات اليمين وتيارات من ذات الشمال، لا لصالح الدين أو لصوالح المسلمين، ولكن لمحض السياسة ومجرد الحزبية.

ثالثا - وطُرحت فكرة سحب الخلافة من مسند السلطنة العثمانية، وكان ذلك قبل الغائها بكثير.

رابعا - وطرحت - كذلك - فكرة وضع الخلافة الإسلامية فى بيت عربى إن لم يكن من قريش ففى غيرها.

وكان من أنصار هذه الفكرة عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ - ١٩٠٢) الذى نشر كتابيه «طبائع الاستبداد» و «أم القرى» لينقد فى الكتاب الأول الحكم الدكتاتورى الشمولى (ويقصد به حكم الخلافة) أما فى الكتاب الثانى فقد بسط وجهة نظره فى نقل الخلافة إلى مكة «أم القرى». كما كان اللورد كتشنر البريطانى من أنصار هذه الفكرة إذ يرى ضرورة أن يكون الخليفة عربيا أصيلا ويكون مركزه فى مكة أو فى المدينة.

خامسا - وطمع ملوك ورؤساء فى الخلافة، منهم ملك مصر فؤاد الأول وخديويها السابق عباس حلمى الثانى وملك الأفغانستان، ومازالت الخلافة مطمعا لبعض الملوك والرؤساء ومطمحا لبعض القادة والساسة. وبذلك فإن الخلافة الإسلامية تسيرّ - حتى اليوم - كثيرا من الأنشطة، وتلون عديدا من التصرفات، وتحكم وفيرا من الأفعال، حتى وإن لم يظهر ذلك صراحة. فالصراع فى الخفاء والمنافسة فى غير علانية، وكل يتحين الفرصة التى تسمح له بأن يظهر نواياه حين يمكنه أن يجمع خيوط الفعالية فى يديه.

سادسا - وظهر الرأى القائل بأن تكون الخلافة منصبا روحيا ينفصل عن السلطة والسلطان. كما ظهر رأى للسير مارك سايكس البريطانى بأن تكون الاستانة أو دمشق مكانا خاصا بالخلافة تستقل فيه على نمط ماحدث للبابوية المسيحية الكاثوليكية فى استقلالها بالفاتيكان بروما. وهذا الرأى لم يدرك التفرقة الدقيقة بين المسيحية والإسلام، وأن الإسلام لايعرف سلطة روحية.

سابعا - وبدأت إشاعة الرأى الذى ينادى بضرورة انتخاب الخليفة، وإن كان البعض قد قصر الانتخاب على أهل الحل والعقد، وهو أمر يدعو بدوره إلى التساؤل عن أهل الحل والعقد هؤلاء، من هم ؟ ومن الذى يعترف بهم ؟ وكيف يمارسون حقوقهم الانتخابية ؟.. وهكذا.

إلغاء الخلافة

على الرغم من الرأى الذى اعتنقه السلطان عبد الحميد الثانى من ضرورة بقاء الخلافة فى البيت العثمانى واستغلالها دينيا لتثبيت سلطان الدولة ومنع أى معارضة لها، على الرغم من ذلك، فقد كان رأى بعض الأتراك أن الخلافة تتركز فى شخص واحد بلا مساءلة وأنها تجمع السلطة فى يده دون مراجعة، ومن ثم فإنها - بالفعل والواقع - نظام شمولى عنيف ودكتاتورى مخيف، وأنه لابد لنهضة تركيا وتحديثها من تحديد السلطة السياسية وتنظيمها ولو أدى ذلك إلى فصل الخلافة عن السلطنة. ثم نشأ بعد ذلك الرأى الذى يرى إلغاء الخلافة كلية.

وفى سنة ١٩٢٢ فُصلت الخلافة عن السلطنة، وكان ذلك إيذانا بإلغائها هى ذاتها، ذلك أن الإسلام - على عكس المسيحية - لايعرف سلطة روحية عليا تتركز فى خليفة أو تتمثل فى أمير.

وفى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ألغيت الخلافة الإسلامية.

* * *

وهنا يثور التساؤل : متى ألغيت الخلافة الإسلامية حقيقة ؟

هل ألغيت فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ؟ أم ألغيت عندما أجبر السلطان سليم الأول الخليفة العباسى المتوكل على التنازل عنها (١٥١٧م)؟ أم ألغيت بعدما دمر التتار بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة وقضوا على الخلافة تماما (١٢٥٨م)؟

وهل كانت الخلافة العباسية إسلامية حقا ؟ وهل كانت الخلافة الأموية قبلها خلافة إسلامية بصحيح ؟

تلك أسئلة يجيب عنها كُلٌّ بما يلائم اعتقاده أو يوائم رؤيته أو يتمشى مع معلوماته أو يساير ما تلقنه. والاجابة لن تكون أبدا واحدة، طالما اختلفت الثقافات وتباينت الأغراض وتفاوتت الأهداف وتوارت النوايا وتزايد الجهل. لكنه مع كل الإجابات سوف تكون ثم إجابة تقول : **وهل ظهرت خلافة إسلامية بحق ؟ إنها إن كانت فهْى مع التجاوز خلافة الخلفاء الراشدين وحدهم، ومع التحقيق والتدقيق فهى خلافة أبى بكر وعمر وحدهما؛ أما بعدهما فقد فسدت الخلافة فكانت فى عهد عثمان رياسة قبلية للأمويين وكانت فى فترة علىّ رمزا أحاطت به المعارك من كل جانب فلم يكن فعالا قط ولم يكن حقيقة أبدا.**

هوامش وتعليقات

(١) أغلب المراجع السابقة ، ويضاف إليها : -

1- Encyclopedia Britannica - Macro - 1977 - vol. 13; P. 771 - 796 .

2- Encyclopedia Americana - vol . 27 , P . 248 - 278 .

3 - Bernard Lewis; The Emergence of Modern Turkey, London, 1968 .

4 - Bernard Lewis; politics and war.

5 - Fisher, H. A. L; A. History of Europe, complete edition in one volume , London , 1955 .

6 - Hamilton Gibb and Harold Bowen, Islamic Sociely and the West .

7 - Thomas Eriskine Holland , the European Concert in the Eastern Question, Oxford, 1885 .

8 - Great Britain, Parliamantory Papers , 1920 .

9 - Paul Ricaut , the History of the Present State of Ottomen Empire , London , 1686 .

10 - Martin Kramer, Islam Assembled , Columbia university Press, 1986 .

١١ - عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية : دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء - مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٨٠ .

١٢- محمد جميل بيهم - فلسفة التاريخ العثمانى - أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها - بيروت ١٩٥٤ .

١٣- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية - دار العلم للملايين - ١٩٦٥ .

١٤ - محمد مصطفى صفوت: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس - القاهرة - ١٩٥٨ .

١٥ - ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور - تحقيق ونشر دكتور محمد مصطفى .

١٦ - أرنولد توماس - الدعوة إلى الإسلام - تعريب دكتور حسن إبراهيم وآخرين .

فقـــــه الخلافـــــة

هل يوجد للخلافة فقه !؟

الفقه هو العلم بالشئ والفهم له؛ وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة وتخصيصا بعلم الفروع منها. وفى الوقت الحالى شاع استعمال اللفظ فى شتى العلوم والمباحث فيقال فقه الشئ، يقصد علمه. بذلك قيل فقه اللغة أى علم اللغة، وفقه القانون أى علم القانون، وفقه الخلافة أى علم الخلافة.

من هذا المعنى يثور التساؤل : هل يوجد للخلافة فقه، أى علم؟ إن فقها للخلافة (أى علما) لابد أن يكون محددا له أصول وله فروع وفيه استقصاءات وفيه تطبيقات. وهو لابد أن يتضمن أصول الخلافة، ونشأة الخلافة، وتاريخ الخلافة، وشروط اختيار الخليفة، واختصاصات الخليفة، ووسيلة عزله.. إلى غير ذلك من وسائل تتجمع فتكون علما وتتكامل فتصير فقها.

لكن ذلك لم يحدث، وإنما كانت الكتابة عن الخلافة تحدث فى حذر شديد ووجل أشد، وتقع فى أعمال متفرقة، وربما فى شذرات متناثرة، وخطرات متباعدة. ويرجع ذلك إلى ظروف كثيرة أهمها أسباب أربعة :-

أولا - فلقد نشأت الخلافة ابتداء دون ماعلم أو فقه، وفى أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ. فلما استقر نظام الخلافة وبدأت الأمة تكتب وتقرأ كان عليها أن تبرر الوضع القائم بالضرورة لا أن تنظم الواقع المفترض فى حرية. فالكتابة عن الخلافة فى الحقيقة كانت تبريرا أكثر منها علما، وكانت تأييدا أكثر منها فقها، وكانت مساندة أكثر منها مباينة، وكانت معاضدة أكثر منها مكاشفة.

ثانيا - وكانت الخلافة شديدة الوطأة، مستبدة غاشمة، ظهر فيما سلف كيف أنها عاملت الفقهاء والعلماء بقسوة شديدة؛ فعذبت السلطة الإمام مالك لمجرد التظنن بأنه يلمح إلى معنى عدم صحة مبايعة المكره للخليفة؛ وضربت الإمام أبا حنيفة حين اعتذر من عدم ولاية القضاء ظنا منها بأنه لايريد أن يتعاون معها؛ وسجنت الإمام أحمد بن حنبل لمجرد قوله بأن القرآن أزلى غير مخلوق؛ وقتلت ابن المقفع حين نصح الخليفة باختيار بطانته... وهكذا.

ففى مثل هذا الجو المكفهر بالضرب والسجن والقتل والتعذيب لايستطيع فقيه أن يتناول مسائل السلطة وتنظيمها، أو علم الخلافة وفقهها، بحرية ويسر، وفى تأصيل وتفصيل، وبيان وإفاضـــة.

وليس أدل على ذلك من أن الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ - ١٥٠٨م) حين وضع كتابه «الأحكام السلطانية والولايات

الدينية» - والذى يعُد أهم كتاب فى بابه - لم ينشر الكتاب فى حياته وإنما أوصى أن ينشر بعد وفاته، وحدث ذلك فعلا.

ثالثا - ومنذ أن نشأت الخلافة الإسلامية وحتى انتهت وهى فى حروب مستعرة ومعارك مستمرة. وفى مثل هذه الحال القلقة غير المستقرة، يكون الفقه - إن حدث - فقه حروب ومجتمعات مضطربة، لافقه سلام ومجتمعات مطمئنة. والفقيه - إن أراد أن يتفقه - فإنه لابد أن يدرك أنه مادامت الدولة فى حالة من الحروب أو أشباه الحروب فإن سلطاتها تكون استثنائية وأعمالها تدخل فى باب الطوارئ، فلا يكون من المتيسر - وربما من غير المرغوب - مناقشة هذه الأعمال وتلك السلطات.

فالفقه الإسلامى إذن فقه حرب أكثر منه فقه سلام، ومثل هذا الفقه يتناءى ويتناهى عن مناقشة السلطة أو مصارحتها أو مصادمتها.

رابعا - ولقد تشكل الفكر الإسلامى وعقل الأمة منذ البداية فى صيغ محددة وقوالب جامدة وسوابق محددة؛ وكان من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - الانفلات منها أولا، ثم مناقشتها أو تغييرها دون التعرض للتاريخ كله أو تقويض التراث بأكمله. فعندما يجد الفقيه أمامه حديثا مُسندا يقول إن «الأئمة من قريش» فإنه يكون أسير هذا الحديث ومفهومه، حتى لايدخل فى معارضة لعلم الحديث بأكمله، ومن ثم فإنه يتعذر عليه أن يتكلم عن الخلافة بحسبانها مركزا يلزم أن يليه الأصلح من المسلمين كافة، ولو كان غير قرشى، وإلا عد من الخوارج الذين قالوا بذلك فعلا. وعندما يجد الفقيه أمامه تراثا كاملا يقوم على بيعة الخاصة للخليفة المسمى والمعين ممن قَبْله فإنه يكون من الصعب عليه أن يتحدث عن اختيار الأمة كلها للخليفة بانتخاب مباشر أو غير مباشر، وإلا انتهى إلى الحكم بعدم شرعية الخليفة القائم فى عصره وكل من قبله من الخلفاء. وعندما يجد الفقيه أمامه نظاما نشأ منذ بداية الدولة الأموية وسار خلال الدولة العباسية وصار أثناء الدولة الفاطمية ، هو نظام توريث الخلافة ـ كأنها ملك - فإنه يكون من المستحيل عليه أن يطالب بغير ذلك فى وقته ، وإلا أعدم على الفور باعتباره كافراً زندقيا ، فلايسمع له قول ولاينشر له رأى .

ومن جانب آخر، فإن صيغاً مثل خليفة الله، أو خليفة الرسول، أو خليفة المؤمنين لابد أن تحد العقل من التفكير وتمنع القلم من الإرسال. فمن ذا الذى يناقش خليفة الله ونور الإله وظل العناية!؟ ومن الذى يفاصل بين حقوق الرسول وحقوق خليفته!؟ ومن ذا الذى يسائل ممثل المؤمنين كلهم ونائب المسلمين جميعا وهو مجرد فرد واحد لاحول له ولا قوة!؟

لهذه الأسباب، ولغيرها، متضافرة مع بعضها أو متفارقة فيما بينها، كان من اللازم - ولابد أن يكون - ثم حائل من قيام فقه للخلافة فى عصور الخلافة. فإذا قيل فإن هناك كتبا مثل كتاب «الأحكام السلطانية» أو غيره فإن الرد على ذلك أننا نتكلم عن فقه لا عن فقيه، ونتحدث عن علم لا عن عالم، ونشير إلى مكتبة لا إلى كتاب واحد أو أكثر.

ومع ذلك فإن كتاب الأحكام السلطانية الذى ينظر إليه كعمدة فى هذا الصدد تناول الإمامة (الخلافة) فى خطبة الكتاب (أى الافتتاحية) بينما جعل الكتاب عن الوزارة وأعمالها. وحتى فيما ذكره عن الخلافة فإنه كان محكوما بالمحاذير السالف بيانها، مربوطا إلى القوائم المذكورة من قبل، مصبوبا فى القوالب التى أنفت الإشارة إليها.

* * *

ذاك حال فقه الخلافة إبّان عصور الخلافة. أما فى العصر الحالى حيث صارت الخلافة الإسلامية من أهم الشعارات التى تتنادى بها جماعات الإسلام السياسى، فإن هذه الجماعات شرعت فى وضع فقه للخلافة يقوم على تزييف الواقعات وتحريف الحادثات، وحذف مالابد من ذكره، وحشر مالا سبب لوجوده.. وهكذا، فهى فى الواقع تلفق فكرا ولاتقدم فقها. وإذ كانت مناقشة ذلك أمراً لازما لاستكمال موضوعات هذا الكتاب، ولوصل الماضى بالحاضر، ولقطع دابر التلفيق والتزويق، فإن هذا هو موضوع الفصل التالى.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعدما انضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا والنمسا فى الحرب ضد بريطانيا وفرنسا، قويت الرغبة لدى هاتين الدولتين فى إضعاف الدولة العثمانية، وربما القضاء عليها نهائيا؛ من عدة طرق، كان منها نزع الخلافة الإسلامية عنها ونقلها إلى بلد مسلم آخر، يفضُل أن يكون عربيا؛ على تقدير أن العروبة أقرب القوميات إلى الإسلام الذى خرج منها أصلا، وعلى اعتبار أن سقوط الخلافة عن آل عثمان ينقلها تلقائيا إلى بيت آل النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يمثله آنذاك الشريف حسين أمير مكة.

وقد نشطت الحكومات الخفية فى بريطانيا وفرنسا إلى تحقيق هذا الهدف. وهذه الحكومات التى تعمل فى السر، وتنتشر فى الخفاء، وتلعب دون أن تتكلم، وتحكم من غير أن تظهر، حكومات تتكون أساسا من أجهزة المخابرات ومن أصحاب المصالح البعيدة والقوية. وقد ندبت هذه الحكومات عدة أشخاص واختطت عدة وسائل لتحقيق الهدف المقصود، من ذلك ماهو شائع عن أعمال رجل المخابرات البريطانى الشهير لورانس (توماس ادوارد لورنس أو لورنس العرب، صاحب كتاب أعمدة الحكمة السبعة : ١٨٨٨ - ١٩٣٥م).

وكان إلغاء كمال أتاتورك للخلافة فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ دافعا منشطا لآمال الكثيرين فى التطلع إليها والتطمع فيها؛ من هؤلاء الملك فؤاد ملك مصر، الذى كان يرتكن إلى قوة مصر كأكبر بلد عربى، ويستند إلى الأزهر الشريف، لإعادة تأسيس الخلافة. وإبّان ذلك نشر الشيخ على عبد الرازق (القاضى الشرعى) سنة ١٩٢٥ كتابه «الإسلام وأصول الحكم»؛ وكانت الفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان هاديا ومبشرا ونذيرا، وأنه عندما حكم فى المدينة حكم كملك، حكومة تقوم على ذات الأساس الذى كان موجودا لدى القبائل العربية فى عهد ماقبل الإسلام، ولاتستند إلى آية من القرآن أو نص من الدين أو حكم من الشريعة (وهو مانعارضه لأن النبى حكم بموافقة الوحى صراحة أو ضمنا، فضلا عن وجود آيات فى القرآن تشير إلى بعض تصرفاته فى الحكم).

وقد ثار القصر الملكى والأزهر الشريف على الشيخ على عبد الرازق، بعدما أحدث الكتاب ضجة؛ خاصة وهو يقوض مطامع القصر ومطامح الملك فى ورث الخلافة، ومن ثم فقد أسقط الأزهر عن الشيخ إجازته الدراسية وبالتالى عُزل من منصبه. ومع ذلك، أو بسببه أيضا، ظلت أفكار الكتاب صوتا مدويا تردده بعض القوى الشعبية التى كانت تكافح القصر الملكى

وتكافح الاستعمار البريطانى، والتى كانت تخشى أن تُستغل الخلافة - كمنصب دينى - لضرب كفاح الشعب، وبث الفرقة فى صفوفه، وتسويغ المظالم والاستبداد، والتنكب للعلم والحضارة باسم الدين، وتكريس الجهالة والبداوة بدعوى الشريعة.

فى ذلك الوقت كان الدكتور عبد الرّزاق السنهورى قد حصل سنة ١٩٢٥ على الدكتوراه من جامعة ليون الفرنسية عن رسالته «القيود التعاقدية على حرية العمل فى القضاء الانجليزى»، ومع ذلك فقد مُدّت له بعثته ليحصل فى العام التالى سنة ١٩٢٦ على درجة أخرى للدكتوراه عن كتاب صمم على وضعه تحت اسم « الخلافة.. ». وقد ظل الكتاب - بعد هذا الجهد الجهيد فى وضعه والعناد البعيد فى تأليفه - باللغة الفرنسية، لاينقله صاحبه إلى اللغة العربية، ولو مختصرا، ولا يكلف أحدا ترجمته، حتى نُشرت ترجمة له أخيرا (نهاية سنة ١٩٨٨).

وترجمة هذا الكتاب ونشره، بعد أن حرص صاحبه على أن يحجبه عن قراء العربية طوال

(الوقت البحث، ولوقتنا المعاصر)، بل إنه طُبق خلال مدة محدودة، هى عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٢ - ٦٦٠م) فترة ثمانية وعشرين عاما من تاريخ طوله أربعة عشر قرنا. ويعْنى ذلك أن البحث، والكتاب، والرسالة، مجرد دراسة نظرية أو محض بيان متْحفى لاصله له بالواقع الحالى ولا بالظروف المعاصرة، إلا أن يكون تأييدا لدعوى الخلافة التى طمع فيها القصر الملكى آنذاك وطمع الأزهر إلى تعضيده فى ذلك.

ويضيف الدكتور السنهورى - وهو على بينة من أنه يبحث دون جدوى ويدرس فى غير لزوم ويكتب دون نتيجة - «.. إنه من الضرورى ألا نتجاهل طول المدة التى سيطرت فيها على العالم الإسلامى نظم الخلافة الناقصة - وهذا يوجب علينا أن نعنى بالتمييز بينها وبين أحكام الخلافة الصحيحة وذلك لكى نفهم كيف كان يُطبق نظام الحكم الإسلامى عمليا خلال ثلاثة عشر قرنا..» (صفحة ٤٥). فالبحث، والكتاب، والرسالة، هى مجرد وضع معايير نظرية - معروفة لكل الباحثين مفهومة من كل الدارسين - تصم نظام الحكم الإسلامى بعد عصر الخلفاء الراشدين بالنقص والقصور والخطأ والفساد. ومن ثم فإنها لاتعد تفسيرا للحكم الإسلامى ولاتبشيرا بنظام آخر سليم، إلا بعد لىّ أفكارها وطىّ أغراضها لكى تُحمل على محمل آخر يخدم تيارا بذاته، على ماسوف يلى بيانه فيما بعد.

ب - ويقول الدكتور السنهورى فى تبرير مفاسد الخلافة :«ونحن لانحاول إنكار الحقائق التاريخية فتاريخ الخلافة الناقصة، منذ عهد الأمويين ومن بعدهم (يقصد حتى تاريخ إلغائها) ملئ بأنواع إساءة السلطة. ولكن هذا الاستبداد مصدره خروج هؤلاء الحكام على قواعد الخلافة الشرعية، فلا يجوز أن يُقال إن مصدره هو النظام نفسه.. فنظام الخلافة لايمكن أن يكون مسئولا عن الفتن التى حدثت فى الدولة الإسلامية أو عدم احترام حكامها لقواعده وأحكامه (!!!)، كما أن وقوع الفتن والخلافات ظاهرة اتسم بها تاريخ الدول جميعا، ولايمكن القول بأن المسلمين كانوا يشذون عن هذه الظاهرة لو أنهم أخذوا بنظام آخر للحكم..» (هامش صفحة ٩٨).

بهذا يكون الدكتور السنهورى قد قطع وجزم بخروج جميع الخلفاء المسلمين - بعد عهد الراشدين - على قواعد الخلافة الشرعية، وقال إن نظام الخلافة ليس مسئولا عن ذلك، كما برر المظالم والخروج على القواعد بأنها ظاهرة يتسم بها تاريخ الدول جميعا، ولم يشذ المسلمون فى ذلك.

وإذا كان الخلفاء جميعا - على مدى أربعة عشر قرنا (إلا ماندر ومالا يُحسب) - قد خرجوا على قواعد الخلافة الشرعية، فإن ذلك أبلغ دليل على أن الخلافة الإسلامية - طوال التاريخ - لم تكن خلافة شرعية ولا نظاما إسلاميا. فإذا لم يكن نظام الخلافة مسئولا عن ذلك - رغم قيم الإسلام ومبادئ الشريعة - فمعنى هذا أن النظام النظرى شئ والواقع شئ

آخر. ثم ماهو نظام الخلافة الشرعية - وفقا للقرآن وطبقا للسنة - والذى لايعد مسئولا عن الخلافة التاريخية؟ وهل يوجد مايسمى بالخلافة الشرعية أم أنها خلافة تاريخية ذات مرحلتين: مرحلة أبى بكر وعمر وفترة من عهد عثمان ومرحلة مابعد ذلك من فتن وحروب ومظالم ومفاسد؟ ثم كيف لا تكون أسس الخلافة وسوابقها مسئولة عن تتابعها ولواحقها؟ وهل يمكن أن ينقطع التاريخ أو يتحول فجأة بلا أساس ولا بذار؟ وماقيمة المبادئ والنظريات إن لم تكن فعالة فى الواقع مؤثرة فى التاريخ منتجة للأحداث؟ وإذا كان ماينتج عن المبدأ عكسه، وما يصدر عن القيمة ضدها، وما تنتهى إليه الفكرة نقيضها فأين يكون الخطأ وكيف يمكن علاجه؟ هل الخطأ فى المبدأ والقيمة والفكرة، أم أنه فى غيبة المنهاج وتغييب عنصر الزمن، أم أن الخطأ فى طبيعة التطبيق؟ أم تراه فى أن المبدأ غير واقعى والقيمة ليست إيجابية والفكرة مجرد قـول!؟

إن تبرير عدم شرعية الخلافة الإسلامية - مدى تاريخها - بأنه أمر لم يشذ به المسلمون، بل إن الفتن والخلافات ظاهرة يتسم بها تاريخ الدول جميعا؛ هذا القول والتبرير مخالطة واضحة؛ ذلك أن نظام الخلافة الإسلامية هو - فى دراسة الدكتور السنهورى وفى رأى البعض - نظام دينى ووضع شرعى؛ فإذا كان الأمر كذلك فلا تجوز مقارنة هذه الخلافة بأى نظام آخر للحكم. فنظم الحكم نظم بشرية وترتيبات اجتماعية وأوضاع سياسية لاتُرتكب فيها المظالم باسم الدين ولاتقع فيها الفتن تحت راية الشريعة، أما نظام الخلافة فقد اقترفت فيه المظالم بدعوى الإسلام زورا، واشتعلت فيه الفتن باسم الله خطأ. ولاشك أن مظالم أو فتنا تحدث باسم البشر ودون استقلال براية الدين أو استظلال بلافتة الشريعة أيسر فى محاربتها وأهون فى اجتثاثها من تلك التى تستخدم اسم الله أو تحتمى بالدين أو تستظل بالشريعة. ثم - ماقيمة تمييز نظام الخلافة الإسلامية عن أى نظام سياسى آخر إن كانت الأساليب فيها جميعا واحدة والنتائج فيها كلها متشابهة!؟ أوليس يعنى ذلك أن العمل السياسى هو بذاته، أسلوب واحد ونتائج متوحدة، سواء بوُشر باسم الدنيا أم مُورس باسم الدين؛ وأنه لاجدوى للإنسان والإنسانية على الإطلاق من صبغ السياسة بصبغة دينية أو تلوين التحزّب بلون شرعى، لأن النتيجة لن تختلف أبدا؛ فالسياسة سياسة، والتحزّب تحزب : طبيعة واحدة ونتيجة بذاتها وأساليب لاتتغير؛ فتن ومكايد، واستبداد ومظالم، يكون تحت راية الدين وفى ظل الشريعة أعتى وطأة وأشد ثقلا وأصعب تبديلا وأعسر تحويلا.

ونتيجة لإدراك الدكتور السنهورى لحقيقة الخلافة الإسلامية - على مدى التاريخ - فقد سماها الخلافة الناقصة (متأثرا فى ذلك بابن خلدون). غير أن التعبير بالنقص غير دقيق، طالما أن النقص قد لايكون أساسيا. فإن يكن النقص فى الماديات مجرد درجة أو درجات كمية هامشية يجوز أن توصف بالنقص، فإنه فى المعنويات لابد أن يكون - وغالبا مايصير - كيفيا

جوهريا، لايمكن أن يوصف بمجرد النقص، لأنه يبدل المنقوص إلى نقيضه ويحوله إلى معنى مغاير تماما. فالنقص فى العدالة ظلم، والنقص فى الرحمة قسوة، والنقص فى الواجب إهمال... وهكذا. ولأن الدكتور السنهورى أدرك أن كلمة ناقصة لاتعبر بدقة عن نظام الخلافة الإسلامية فقد عاد وقال إنها الخلافة غير الصحيحة والمعيبة (صفحة ١١٠)، وهما لفظان للتعبير السياسى عن الفساد والخطأ والعَوَرْ. ومفاد ذلك أن الخلافة غير الصحيحة المعيبة الفاسدة الخاطئة ذات العَوَرْ لايمكن أن تكون خلافة إسلامية إلا باللفظ، ولايجوز أن تكون خلافة شرعية إلا بالقول.

جـ - ويرى الدكتور السنهورى أن خصائص الخلافة (التى لم تقع قط ولم تكتمل أبدا ولم تتحقق مدى التاريخ بعد الراشدين) هى :-

١- اختصاصات عامة تقوم على التكامل بين الشئون الدنيوية والدينية.

٢- التزام بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية.

٣- وحدة العالم الإسلامى.

ومع أن هذه الخصائص نظرية - بقول الدكتور السنهورى نفسه - لم تتوافر مدى تاريخ الخلافة الإسلامية (الناقصة والقاصرة والفاسدة والمعيبة) فإنها - فضلا عن ذلك - محل نظر. ذلك أن الدكتور السنهورى لم يحدد ماهية الشئون الدنيوية والشئون الدينية حتى يحدث بينهما تكامل لا اختلاط، ويقع معهما توافق لا اضطراب. وقد ورد فى الكتاب (هامش صفحة ٤٨ نقلا عن مذكرته رقم ١٦٠) أنه «فى الشريعة الإسلامية نفسها من الممكن أن يرى الباحث فى التعاليم الإسلامية تعاليم دينية وإلى جانبها أساسا لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بعلم الأخلاق أو بالدين المسيحى فى الأمم المتدينة (يقصد المسيحية)..». فالتكامل بين الشئون الدنيوية والشئون الدينية أساس فى كل تدين، وطبيعى فى كل نظام، وهو ملحوظ فى الأمم المتدينة. وصلة المدنية (ومنها النظم السياسية والإدارية والاجتماعية) بالإسلام - فى تقدير الدكتور السنهورى - هى كصلة المدنية الغربية (بجميع نظمها وعلومها وأوضاعها) بعلم الأخلاق أو الدين المسيحى!!!! دون أى تمييز يضعه فى كتابه أو أى تفريق يحدده فى رسالته.

وفيما يتعلق بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، فالملاحظ أن الدكتور السنهورى فى كتابه عن الخلافة (وفى جميع أعماله) يخلط بين الشريعة والفقه. فالشريعة هى منهاج الله الذى يتبعه المؤمنون فى شئون الحياة، أما الفقه فهو آراء الفقهاء وبحوث العلماء وتفسيرات المفسرين وفتاوى المفتين وأحكام القضاة التى قد تتبع أحكام الشريعة وقد تبتدع أحكاما خاصة، وقد تتفق فيما بينها وقد تختلف. والاضطراب بين الشريعة والفقه، والخلط بينهما، يظهر فى كل صفحات الكتاب. وعلى سبيل المثال :«فى حين أن الشريعة (يقصد الفقه) يجب

أن تبقى بعد ذلك فى نمو مستمر وتطور متواصل» (صفحة ١٢)، «فالاجماع .. أداة فنية ضرورية لصياغة أحكام الشريعة (يقصد الفقه).. ونموها وملاءمتها مع حاجات المجتمع وظروفه...» وهكذا. ومؤدى الخلط بين الشريعة والفقه عدم تحديد نطاق كل منهما، وبالتالى صيرورة لفظ «التكامل» بغير معنى، إذ لايقوم التكامل إلا بين قوامين محددين. هذا فضلا عن الآثار الوخيمة للخلط بين الشريعة والفقه على عمل الخلافة نفسه، ذلك أنها ادعت تطبيق الشريعة وهى تطبق الفقه، وزعمت إعمال الإسلام وهى تفرض الرأى، وتعللت بحرية الاعتقاد وهى تقسر الناس. ولعل ذلك من أهم الأسباب التى جعلتها دائما خلافة معيبة فاسدة.

ولقد يُقال إن الرأى إذا كان يُطبَّق حكما شرعيا وأن القضاء إذا كان يُنزل نصًّا دينيا فهو من ثم قضاء دينى وحكم شرعى؛ وهذا القول مغالطة خطيرة. فالطلاق مثلا يقع إعمالا لنص دينى لكنه - أبدا - ليس حكما دينيا. ومذاهب الفقهاء تركن إلى أحكام من الشريعة أو آيات من القرآن أو أحاديث للنبى (صلى الله عليه وسلم)؛ ومعنى الرأى السابق أنها بذلك شرعية وليست فقهية؛ أى أنه توجد شرائع عدة داخل الإسلام، فثم شريعة أبى حنيفة وشريعة مالك وشريعة الشافعى وشريعة ابن حنبل والشريعة الجعفرية، وهكذا. وهذا أمر يبدد الإسلام ولايجمّعه ويفرق الشريعة ولايوحدها، ويجعل من آراء الناس شرعًا، كأحكام الله سواء بسواء.

والخلط بين الشريعة والفقه هو الذى أدى بالدكتور السنهورى أن يستلزم لاحياء الشريعة الإسلامية (يقصد تجديد الفقه الإسلامى) شرطين؛ وهذان الشرطان لايجعلان منها فقها إسلاميا فحسب، بل وفقها عالميا دوليا كذلك. فهو يقول (فى مذكرته رقم ١٦٠ المنشورة فى هامش صفحة ٤٩ من الكتاب) :«وأزيد هنا أنه فى إحياء الشريعة الإسلامية لايجب الاقتصار على كونها شريعة صالحة لتطبيقها على المسلمين فى العصر الحاضر بل على غير المسلمين أيضا، وليس معنى هذا إرغام غير المسلمين على اتباع قواعد لاتقرها معتقداتهم وأديانهم المختلفة التى يجب احترامها احتراما تاما، بل معناه أن تكون حركة إحياء الشريعة مبنية على أساس لايتناقض مع هذه المعتقدات الدينية. ولتحقيق ذلك يجب تقرير مبدأين (١) أن يعمل فى هذه الحركة الإصلاحية إلى جانب المسلمين غيرهم من الشرقيين غير المسلمين، القانونيين منهم والاجتماعيين (٢) أن يقرر بجلاء قاعدة لم تعط حتى الآن عناية كافية، وهى أن الشريعة الإسلامية تكملها الشرائع الأخرى، مالم تتناقض معها هذه الشرائع فتنسخ الجزء الذى تناقضت فيه معها. وفيما عدا ذلك فإنه يجب اعتبار هذه الشرائع قائمة كجزء من الشريعة الإسلامية. وبمقتضى هذه القاعدة يمكن قبول كثير من مبادئ الشرائع الأخرى الصالحة للتطبيق فى العصر الحاضر».

فالدكتور السنهورى يرى من ثم أن الشريعة (يقصد الفقه) ناقصة وأنه لايمكن تطبيقها إلا إذا تكاملت بجهود غير المسلمين وشرائع غير الإسلام. فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون من

خصائص الخلافة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية إذا كانت هذه الأحكام ناقصة وتتكامل بغيرها، وتنتهى بهذا التكامل إلى أن تصبح فقها عالميا دوليا يسهم فيه الجميع وتصب فيه كل الشرائع، وليست شيئا متميزا بذاته!؟

أما عن وحدة العالم الإسلامى كإحدى خصائص الخلافة الإسلامية فإنه أمل عزيز لم يتحقق قط، وغالب الأمر أنه لن يتحقق فى المستقبل إلا من خلال وحدة عالمية للإنسانية جميعا.

د - ويقول الدكتور السنهورى «.. إن حكومة (الخليفة) لاتملك أية سلطة تشريعية فى الإسلام.. (وأن).. هذا المبدأ (استقلال التشريع عن الحكومة) يحد من سلطة الخلافة (الحكومة) فلا يستطيع الخليفة أن يكون حاكما مطلقا. وهذا من أهم خصائص نظام الحكم الإسلامى، لأن سلطته (الخليفة) مقصورة على المسائل التنفيذية والقضائية، وإن كانت اختصاصاته واسعة فى هاتين الناحيتين، إلا أنها لاتشمل حق التشريع ولا يستطيع الخليفة أن يتدخل فى نطاق التشريع.» (صفحة ٦١).

وهذا القول ظاهر المخالطة، ناء عن الواقع، بعيد عن الحقيقة. فالفقه غير التشريع، ولم يقل أحد أبدا، فى كل كتب القانون، أن الفقه بصفة عامة هو بذاته التشريع. فالتشريع سن للقوانين تقوم به هيئة تشريعية مستقلة أو يصدر عن السلطة التنفيذية (السلطان) بصورة أو أخرى. أما الفقه فهو شرح القوانين أو تفسير القواعد أو تنظير المسائل أو تقعيد الأمور أو استنباط الحلول أو تصور النتائج أو تعقب الآثار.. إلى غير ذلك. والعالم الإسلامى - فى مجمله - وحتى وقت قريب - لم يعرف نظام التشريع ولاوجود هيئة تشريعية مستقلة ولا وجود نظم قانونية محددة. لذلك كله فقد كان التشريع يصدر عن السلطة التنفيذية (الخليفة أو السلطان) فى صورة بدائية مرتجلة، هى أوامر أو مراسم أو تعليمات أو تفسيرات شفوية. وحتى إن كُتبت فإنها كانت تأخذ صورة إنشائية بحتة ولم تكن تصدر فى صيغ قانونية محددة.

وعلى سبيل المثال، فإن الخليفة الأول أبا بكر الصديق فرض ضريبة على جميع المسلمين فى عصره، هى الصدقة التى ينص القرآن على أنها حق للنبى وحده مقابل صلاته على معطى الصدقة «**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم**» (سورة التوبة ٩:١٠٣). ومافعله أبو بكر هو - فى الفهم القانونى السديد والوصف العلمى الدقيق - تشريع بفرض ضريبة. والخليفة الثانى عمر بن الخطاب حدد عقوبة شرب الخمر - بعد مشاورة على بن أبى طالب - بجعلها ثمانين جلدة، وهى عقوبة لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية، وبذلك تكون تشريعا بفرض عقوبة. وعمر - كذلك - وقف حد السرقة فى عام المجاعة، ومنع سهم المؤلفة قلوبهم فى الصدقات. وهذا التصرف وذاك هو فى حقيقة الأمر تشريع عدّل عقوبة ولو لفترة، ونظم توزيع الصدقات بغير الصورة التى وردت فى القرآن. والخليفة الثالث عثمان بن عفان أعطى مروان بن الحكم (ابن عمه) الحق فى خمس غنائم

أفريقية، وهو تشريع بتخصيص مصدر المال العام إلى مصرف معين بذاته. والخلفاء الأمويون فرضوا الجزية على المسلمين من غير العرب، حتى ضجّ المسلمون من ذلك فأسقطها عمر بن عبد العزيز، وقال إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أرسل هاديا ولم يُرسل جابيا، وفرض الجزية على المسلمين - فى واقع الأمر - تشريع بفرض ضريبة لم ترد فى القرآن وإلغاؤها تشريع آخر... وهكذا لاتقف الأمثلة ولاتنتهى.

والفقهاء - الذين يُظن أنهم كانوا يشرِّعون - كانوا فى الحقيقة يُفسرون أو يشرحون أو يستنبطون ليس إلا، وكانوا - فيما يفعلون - يضعون أعينهم فى كل قول أو همس أو صمت على الخلافة الجائرة، فلا يصدر عنهم إلا مايوافق عليه الخليفة وما يرتضيه السلطان ومالك بن أنس (المتوفى سنة ٧٩٥م) كان قد أفتى بعدم جواز طلاق المكره ففهم والى المدينة من الفتوى أن مالك يقصد بها عدم صحة بيعة المكرَه (للخليفة) فضربه ضربا مبرحا. وأبو حنيفة النعمان (٦٩٩ - ٧٦٧م) ضُرب بشدة لما اعتذر عن ولاية القضاء، لما استنتجه الوالى من أنه بذلك لايريد التعاون مع السلطة. وأحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥م) عُذّب عذابا نُكرا لأنه أبى أن يعتنق رأى الخليفة المعتزلى بأن القرآن مخلوق وليس أزليا. والماوردى (المتوفى سنة ٤٥٠هـ) صاحب «الأحكام السلطانية» الذى يعتمد عليه الدكتور السنهورى فى كتابه كان قد أوصى بعدم نشر كتاب الأحكام هذا حتى وفاته، وبالفعل نشر الكتاب بعد وفاته مع أنه لايتضمن مايَشُق على الخلافة أو الولاية أو السلطان، لكنه الخوف الشديد والرعب القاتل الذى يخرس الألسنة ويقصف الأقلام...!

وإذا كانت هذه هى الحال مع أئمة الفقه عندما يُبدون رأيا أو يمتنعون عن إبداء رأى أو يتخذون موقفا سلبيا يُؤول على معنى معين فهل يمكن أن يكون هؤلاء أو غيرهم مشرعين!؟ وإذا كان ماحدث لهم قد حدث وهم يتكلمون فى مسائل «القانون الخاص» فكيف كانت تكون الحال معهم ومع غيرهم إذا كانوا قد اجترءوا وخاضوا أو حتى تعرضوا لمسائل «القانون العام» أى موضوعات السلطة والخلافة وعلاقتها بالدين أو الشريعة أو المسلمين. إن الدكتور السنهورى نفسه يقرر «أن مسائل القانون العام لم تحظ من الفقهاء المسلمين.. بنفس العناية التى بذلوها لمسائل «القانون الخاص» (صفحة ٥٩)، وأن «القواعد المنظمة لحريات الأفراد وحقوقهم العامة.. تناولتها كتب الفقه الإسلامى بطريقة استطرادية دون أن تضع لها نظريات عامة تناسب أهميتها العملية. ودراستها تحتاج إلى بحوث ومؤلفات خاصة تدخل فى نطاق دراسة سلطة التشريع» (صفحة ٦٠). فإذا كانت سلطة التشريع - على فرض وجودها - فى عهود الخلافة المعيبة، وطوال التاريخ الإسلامى، لم تمارس أوجب واجباتها وأول حقوقها فى وضع القواعد المنظمة لحريات الأفراد وحقوقهم العامة، فما الذى فعلته إذن!؟ وهل يمكن أن يقال إن هذه السلطة كانت مستقلة عن الخلافة، بينما هى لم تقم أصلا، ولم تُنَظِّم فعلا!؟

هـ - ويقول الدكتور السنهورى «وقد أدى ذلك بالبعض إلى القول بأن الحكومة (الخلافة) الإسلامية هى حكومة (العلماء)» (صفحة ٦٨). ومع خطورة هذا الرأى فإن الدكتور السنهورى نسبه للبعض ولم يذكر رأيه فيه. فكان بعرضه للرأى وعدم تفنيده أو إبداء الرأى فيه قد وافق عليه ولو ضمنا. وهذا الرأى هو رأى الشيعة وتيار الإسلام السياسى وليس رأى أهل السنة، وهم أهل الجماعة، فالقول به من ثم ينتهى إلى تبنى المذهب الشيعى فى «ولاية الفقيه» التى تتأدى فى أن الحكومة فى الإسلام هى حكومة الفقهاء (فى علوم الفقه الإسلامى)، أو أنه يمهد ويوطئ للإسلام السياسى بقصر الحكومة على أئمته بدعوى أنهم هم الفقهاء حقا والعلماء صدقا، وأنهم أهل الحل والعقد، لهم وحدهم حق الحكم دون غيرهم من المسلمين.

و - ومع أن الكتاب، والبحث، والرسالة، هى عن الخلافة الإسلامية فقد خلت من تعريف علمى لها، وبذلك تركت الموضوع بلا تحديد، والدراسة بلا تعريف، والسياسة بلا عنوان، والخلافة بغير بيان. وفى الإشارة إلى تعريف أورد الدكتور السنهورى تعريفا للتفتازانى (وهو من غير فقهاء الدرجة الأولى) بأنها «رئاسة عامة فى أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبى (صلى الله عليه وسلم)» (صفحة ٨٣)، كما أشار إلى رأى التفتازانى - كذلك - فى كتابه «تقريب المرام - شرح تهذيب الكلام» أن الخليفة يمثل الله ويمثل الأمة فى نفس الوقت (صفحة ٧٢ هامش ٣). ونظرا لأن الدكتور السنهورى لم يذكر تعريفه هو للخلافة ولا أبدى الرأى فى تعريفى التفتازانى، بل إنه كررهما وألح عليهما، فإن مفاد ذلك أنه وإن لم يتبناهما فإنه لايستنكرهما. وهذان التعريفان خاطئان، وهما يكرسان فكرة «خلافة الله» أو الحق الالهى المقدس للملوك والخلفاء. وأبو بكر الصديق نفسه - أول خليفة فى الخلافة الكاملة (على رأى الدكتور السنهورى) - أنكر أنه خليفة النبى، وقال إنما هو خالفته أو خالفه (أى من تلاه فى الزمن) ولست خليفته (أى الذى له حقوقه وعليه التزاماته)، هذا فضلا عن أنه لم يبدر عن أحد من الخلفاء الراشدين مايفيد أنه يمثل الله أبدا، فيما عدا قولة لعثمان بن عفان عندما أرادوا خلعه من الخلافة قال فيها إنه «خليفة الله»، وهو تعبير قصد به إلى المجاز ولم يرم إلى الحقيقة، وقد فهمه الناس فى وقته على المعنى المجازى الذى يفيد نسبة كل شئ إلى الله، كأن يقال «أرض الله» و «مال الله» و «بيت الله».. وهكذا، دون أن يفيد معنى الحق الإلهى المقدس فى الحكم.

ز - ومما يثير الاستغراب ويدعو إلى الدهشة فى رسالة الدكتور السنهورى عن الخلافة أنه كتبها فى العام التالى لصدور كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وأصر عليها رغم محاولة أستاذه الفرنسى الدكتور لامبير إثناءه عنها ومقاومته له واعتراضه عليها (صفحة ٣٩ من الترجمة). وبعد ذلك قام الدكتور السنهورى بعرض آراء الشيخ على عبد الرازق والرد عليها

بإسهاب فى متن الكتاب وصلب الرسالة، لا فى الهامش (صفحة ٩٦-١٠٨)، مع أن القواعد العلمية والأعراف الجامعية لاتذهب إلى عرض أفكار كتاب عادى ومعاصر، إلاّ أن تكون الأفكار ذات خطر استثنائى. وهى لاتجيز إلا عرض الأفكار المستقرة والإشارة إلى الكتب الكلاسيكية (التقليدية). وهذا التصرف يعزز فكرة أن الرسالة ذاتها لم تُكتب وتُقدم إلا بقصد الرد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم»؛ وبهدف الحصول من جامعة أجنبية، وخلال رسالة علمية، على آراء تقوض آراء الشيخ على عبد الرازق، وتعزز موقف القصر الملكى فى الدعوة إلى الخلافة الإسلامية بحسبانها نظاما دينيا لابد من إقامته ولامفر من إعادته.

وربما لهذه الأسباب وتلك المعانى، أدرك الدكتور السنهورى أن الرسالة كتاب للمناسبة أكثر منها دراسة للتاريخ، ولهذا فقد عزف عن ترجمتها أو عن دعوة غيره إلى ترجمتها - وهو أمر أكثر غرابة - وكفأ على الرسالة سترا من الصمت وغطاها بسدائل من النسيان، أو لعله أدرك أنها من خطرات الشباب وحماس العواطف الذى يتجاوز المقررات العلمية والحقائق التاريخية ليسبح فى الخيال أو يسرح فى الأوهام؛ وخاصة أن مستواه العلمى - بعد ذلك - فاق أسلوب وفكر الرسالة بكثير، وجعلها بالنسبة لأعماله التالية مجرد محاولة فى الفكر السياسى لم تُستكمل ولم تستدم.

وقد ظلت الحال على ما أراده الدكتور السنهورى، غطاء على الرسالة وسدائل على الكتاب، حتى نُشرت لها ترجمة حديثة قصدت أن تجعل منها عملا سياسيا يرتبط بتيار الإسلام السياسى، ويمهد لفقه الإرهاب القادم.

الترجمة والإسلام السياسى

أ - لكى ترتبط الترجمة بنشاط الإسلام السياسى وتنظّر له أهدافه ثم تبرر أعمال العنف والإرهاب، فقد عمدت إلى عدم ترجمة الجزء الثانى من الرسالة الذى عرض لتاريخ الخلافة، بدعوى أن العرب والمسلمين لديهم من المصادر فى هذا الشأن مايُغنى (صفحة ٩). وإغفال جزء كامل من الرسالة تدخّل من الترجمة غير مُبَررٌ فى أعمال المؤلف وفكره، وجزم بأنه متقّطع غير متكامل، فضلا عما فيه من معنى حجب بعض أفكار المؤلف عن القارئ وانتخاب مايراد له قراءته. ولا يُرد على ذلك بوجود مصادر أخرى فى هذا الشأن؛ ذلك أن الكتاب المترجَم كل متكامل، وهو رسالة لنيل الدكتوراه، وقد لاتفهم أغراض وأهداف المؤلف تماما مالم تُنشر وتقرأ متكاملة. هذا بالإضافة إلى أنه من غير المعقول أن يكون جزء كامل من رسالة جامعية مجرد نقول من كتب أخرى فلا يتضمن رأيا للمؤلف ولو كان عابرا، أو تعليقا له وإن كان هامشيا. ولربما كان لهذا التعليق أو ذاك الرأى أثر كبير على مفاهيم الرسالة ومضامين البحث، وأهداف وأعمال الإسلام السياسى ذاته.

ب - ولجأت الترجمة إلى تغيير جوهرى فى عمل الرسالة، إذ استبدلت لفظ «الحكومة» بلفظ «الخلافة» وبذلك جردت الرسالة حتى من عنوانها، فبينما يعنى المؤلف برسالته «الخلافة الإسلامية» فقد حولتها الترجمة إلى «الحكومة الإسلامية». وقيل فى ذلك إن الترجمة سوف تستعمل كلمة «الحكومة» مرادفة لكلمة «الخلافة» خلال الدراسة لأن رأى الترجمة أن «أحكام الخلافة نظرية عامة التطبيق على جميع نظم الحكم من وجهة النظر الإسلامية». (صفحة ٦٠ حاشية ٤). وهذا تحريف خطير فى مفهوم الرسالة ومضمون البحث لم يقصد إليه المؤلف ولم يرم إليه الكتاب. فالخلافة غير الحكومة، وسحب نظام وشروط وخصائص الخلافة على نظام وشروط وخصائص الحكم أمر خطير جدا، لابد أن يُحدث اضطرابا شديدا، خاصة إذا كانت الرسالة تسلم بأن الخلافة الإسلامية التاريخية خلافة غير صحيحة وأن خلافة المستقبل هى عصبة أمم إسلامية. فكيف مع استحالة تحقيق شروط الخلافة ذاتها واقعيا أن تُقسر هذه الشروط على الحكومات... أليس هذا بذاته كافيا لبذر بذور شقاق وزرع ثمار فتنة لايعلم مداها إلا الله!؟

إن الخلافة رياسة عامة للدول الإسلامية فى حين أن الحكومة نظام إدارى لتسيير شئون الدولة، والتخليط بين هذه وتلك تشبيك بين مختلفين وتدخيل بين متغايرين. وإذا كانت الخلافة - فى تعريف التفتازانى الذى يعتنقه الدكتور السنهورى - هى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا، خلافة عن النبى (صلى الله عليه وسلم)؛ وأن الخليفة يمثل الله ويمثل الأمة فى نفس الوقت (وهما تعريفان لاتوافق عليهما ولايوافق عليهما أغلب المسلمين)، إذا كان هذا هو أمر الخلافة، فكيف تصبح الحكومة كذلك خلافة عن النبى وتمثيلا للأمة، مع أن الحكومة هيئة معنوية والخلافة شخص طبيعى، والحكومة سلطة تنفيذية والخلافة رياسة عامة، والحكومة لدولة واحدة والخلافة لجميع المسلمين أو أغلبهم!؟

وهل يعنى ذلك أن يكون كل والٍ أو قاض أو حاكم - شأنه شأن الخليفة - ممثلا لله !؟ وماذا يحدث عند تعارض الإرادات أو اختلاف الأغراض؟ وهل مؤدى هذا أن تُطبق الشروط التى يلزم توافرها فى الخليفة على كل من يلى عملا فى الحكومة!؟ وعلى سبيل المثال فإن البعض يشترط أن يكون الخليفة قرشيا أخذا بحديث يقول «الأئمة من قريش»، فهل - مع التسوية بين الخلافة والحكومة - يُشترط أن يكون كل من يلى وظيفة حكومية قرشيا كذلك؟ أو حتى يثار البحث بهذا الشأن!؟ وهل يعنى هذا إهدار الآراء السديدة التى قال بها فقهاء مثل الماوردى (فى : الأحكام السلطانية) من أنه يجوز أن يُولَّى غير المسلم حكومة التنفيذ لاحكومة التفويض!؟ بحيث يُشترط الإسلام فيمن يلى أيا من هاتين الحكومتين!؟

ومما يناقض هذا الاتجاه - فى التسوية بين الخلافة والحكومة - أن الترجمة أشارت فى أكثر من موضع إلى أن الخلافة عند السنهورى ليست دولة ولا نظام حكم بل إنها مبدأ وحدة الأمة

(صفحة ١٧)، فكيف ينحل مبدأ وحدة الأمة إلى مجرد شروط - غير قابلة التحقق - للوزراء والمدراء، حتى ولو كانوا منفذين لشئ أو أمر لامفوضين بالتصرف!؟ وكيف يسوغ أن تكون شروط الرياسة العامة شروطا لأى موظف محلى أو أى عامل إدارى؟ وماهى الفوارق؟ وما دواعيها؟

جـ - وتربط الترجمة - فى أحيان كثيرة - تعليقات وهوامش بفكر المؤلف، بحيث يختلط الفكر مع بعضه فلا يستطيع القارئ تحديد هذا من ذاك، أو يتداخل مع المطّلع فلا يتفاصل كل منهما؛ وخاصة أن التحديد والفصل يكون عادة من عمل النقاد الذى لايطيقه القارئ العادى. ومن أمثلة ذلك ماورد فى صفحة ٤٧ (هامش٢) من أن الدكتور السنهورى أشار فى مواضع متفرقة من مذكراته إلى أن الشريعة الإسلامية تعتبر الأقليات الدينية (أهل الذمة) مواطنين للدولة الإسلامية طالما أنهم يلتزمون تطبيق الشريعة والولاء للدولة الإسلامية... ثم أضيف فى الصفحة التالية... إن القانون الإسلامى (بالمعنى العصرى) الذى يشمل أحكام المعاملات والنظم الجنائية والسياسية.. أحكام دنيوية تسرى على جميع مواطنى الدولة الإسلامية، وقد أورد تعليق الترجمة تدليلا على ذلك ماورد فى مذكرة الدكتور السنهورى رقم ١١٦ (من مذكراته) : أن اصطلاح الأمة (الجماعة) الإسلامية لايعنى مجتمعا من المسلمين فقط، بل يقصد مجتمعا ساهم فيه جميع الطوائف الدينية التى عاشت وعملت معا جنبا إلى جنب تحت راية الإسلام، وقدمت بذلك تراثا مشتركا لجميع سكان الشرق الإسلامى. ثم ماورد فى مذكرته رقم ١١٨ من أنه لايرى مايمنع من التوسع فى معنى «المدنية الإسلامية» على النحو الذى يجعل منها ميراثا للمسلمين والمسيحيين واليهود المقيمين فى الشرق، ذلك أنهم تضافروا على إيجاد هذه المدنية. ثم ماورد فى مذكرته رقم ١٦٠ من أنه فى الشريعة الإسلامية نفسها من الممكن أن يرى الباحث فى التعاليم الإسلامية تعاليم دينية وإلى جانبها أساسا لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بعلم الأخلاق أو بالدين المسيحى فى الأمم المتدينة!!!

وواضح من نصوص الدكتور السنهورى نفسه أنه يتحدث عن حضارة ومدنية ومجتمع الشرق الإسلامى، وكيف أنّ هذه جميعا نشأت بتضافر قوى المسلمين والمسيحيين واليهود، كما أنه يشير إلى وجود أساس فى الشريعة الإسلامية لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بالدين المسيحى؛ لكنه لم يذكر فى أى نص مما أوردته الترجمة ماجاء فى التعليق من تطبيق الشريعة الإسلامية على جميع المواطنين، مسلمين وغير مسلمين، بما فى ذلك أحكام المعاملات (وهى فقه لاشريعة) والنظم الجنائية (وماعدا حدود أربعة والقصاص، كله فقه) والسياسة (وهى نظم اجتماعية وفقهية لم ترد فى القرآن أو السنة، ويختلف الفقهاء بشأنها اختلافا كبيرا؛ بل ويقول الدكتور السنهورى إنها لم توجد بصورة منظمة فى الفقه

الإسلامى). ومفاد ذلك أن تداخل التعليقات مع نصوص المؤلف قصد لىّ معانيه وطى أغراضه لتوافق أهداف وأعمال تيار الإسلام السياسى.

د - وفى «تقديم الكتاب» الذى كتبه ..... «المراجع والمعلق والمقدم» يقول :«.. ومازال عدد كبير من كتابنا ومؤلفينا متأثرين... بقصد أو عن غير قصد... (بما).. روّجه أعداؤها (الخلافة) من اتهامات تغذيها أحقاد تاريخية عنصرية موروثة لا مجال لها فى الحاضر والمستقبل... (ثم يضيف) ... يمكن القول.. (بـ).. انقسام الكتّاب والباحثين إلى تيارين :-

التيار الأول يمثله الإسلاميون الذى مازالوا يعتبرون «الخلافة» رمزا لتاريخنا الإسلامى.. رغم مايكون قد شاب نظم الحكم.. من عيوب أو نقائص..

أما التيار الثانى فهو تيار واقعى يرى أن الاتجاه الوطنى أو القومى يتعارض مع فكرة الخلافة .. وينتسب لهذا الاتجاه الواقعى دعاة «التغريب» أى الاندماج فى الحضارة الأوروبية بخيرها وشرها.. وبذلك يسعى هؤلاء الاندماجيون لإقناع شعوبهم بأن تذوب وتندمج فى المجتمعات الاستعمارية... »

وهذا الذى يذكره ضرب من التعميم ونوع من التقسيم، ماكان ينبغى أن يُذكر فى رسالة علمية؛ هذا فضلا عن أنه يناقض عمل الرسالة وهدف البحث.

فالتلويح بأن الذى يأبى نظام الخلافة التاريخى، ويقيمه تقييما صحيحا، متأثر بما روجه أعداء الخلافة قول فيه كثير من التجنى، حتى على الدكتور السنهورى نفسه الذى ذكر نقائص الخلافة ودعا إلى إنشاء خلافة من نوع آخر غير الخلافة التاريخية- خاصة وقد أدرك استحالة إيجاد الخلافة الكاملة - سماها عصبة أمم شرقية، أو لعلها هى المؤتمر الإسلامى الموجود حالا. فمطاعن التقديم الذى كتبه الدكتور الشاوى توجه إلى الدكتور السنهورى ذاته، وخاصة أنه قدم بحثه إلى جامعة فرنسية (استعمارية !!!؟) هى من صميم الحضارة الأوروبية!!!

وفرز المجتمع، والكتاب، إلى إسلاميين ومسلمين عمل حزبى ينتهجه تيار الإسلام السياسى لصدع المجتمع وحرب الناس، وكان الأفضل أن يترفع عنه كتاب علمى.

أما إطلاق وصف «الواقعيين» على الذين يرفضون عودة الخلافة الإسلامية بصورتها القاصرة والفاسدة، والتى أصبحت تراثا فى التاريخ الإسلامى يصعب تغييره، ثم وصمهم بأنهم اندماجيون فى الحضارة الأوروبية، فهو ربط فاسد وخلط غير صحيح. فليس كل من يرفض الخلافة التاريخية مندمجا فى الحضارة الأوروبية. والواقعى (العملى) يقابله النظرى الخيالى. وإذا كان الواقعيون - والدكتور السنهورى منهم - يرون أن حركة التاريخ مما يستحيل معها عودة نظام الخلافة التاريخى، فإن أنصار الإسلام السياسى يتعلقون بالنظريات ويتخلقون بالشعارات ويتمزقون فى الخيالات. وهم بذلك يُصبحون سلبيين منفعلين لا إيجابيين فاعلين، ومن ثم يندمجون ماديا وعفويا فى الحضارة الغربية التى تأسرهم وتشل قواهم، فى حين أن

الواقعيين العمليين إيجابيون فاعلون، ومن ثم أصبحوا - ولابد أن يكونوا - أكثر قدرة على التداخل فى هذه الحضارة والتأثير فيها وإضافة عناصر دينية وإنسانية خلاقة، تجعل منها حضارة إيمانية إنسانية، تقوم على محض الإيمان وتعنى بصميم الإنسان.

وعلى ماسلف القول فإن الدكتور السنهورى ذاته كتب رسالته فى أحضان الغرب ونال درجته العلمية عنها من محافل غربية أوروبية (استعمارية!!!)، وقد انتهى فيها إلى أن يُستبدل بنظام الخلافة التاريخى الفاسد نظام آخر هو عصبة الأمم الشرقية أو ما يسمى حالا بالمؤتمر الإسلامى؛ وبذلك تكون الرسالة أبلغ رد على التقديم، كما تكون - من جانب آخر - قد استنفدت أغراضها، وأصبح كل لىٌّ لها عملا غير سليم، وكل طىٌّ لأغراضها وضعا غير سديد، يدعو إلى إشعال الفتنة لاغير ويعمل على إشاعة الاضطراب فحسب!

يؤيد ذلك النظر أن المعلق يقول (صفحة ٢٢-٢٣) : إن دفاع السنهورى عن الخلافة... استعرض أهم المبادئ التى يرى أن فقه الخلافة يقوم عليها وأن شعوبنا فى أشد الحاجة لإعمالها والاستفادة منها - حتى فى نطاق نظم الحكم الوطنية - ويكفى أن نذكر منها.. فقدان الخليفة للحرية الذى يقرر الفقهاء أنه يترتب عليه سقوط الولاية تلقائيا يتحقق فى حالة خضوع الحاكم المسلم للنفوذ الاستعمارى أو السيطرة الأجنبية أيا كانت الصيغة العصرية لها كالحماية أو الانتداب أو الوصاية أو الدخول فى منطقة نفوذ أجنبية.

وإذا كان كتاب فقه الخلافة للدكتور السنهورى قد انتهى إلى أن تتخذ الخلافة فى العصر الحالى شكلا آخر هو عصبة أمم أو مؤتمر إسلامى، وقد قام بالفعل، فما هو المقصود بالحاكم الذى ينعزل ولو فى الحكومة الوطنية إذا مادخل فى منطقة نفوذ أجنبية!!؟ أليس ذلك بابا كبيرا للفتنة ومدخلا عظيما للاضطراب - أبعد فى كل جانب من فكر ابن تيمية الإرهابى دستور الجماعات المتطرفة - يسمح لكل فرد أن يتهم أى حاكم بأنه دخل - مجرد دخول - فى منطقة نفوذ أجنبية، دون أن يحدد هذا الدخول، مع أن كل دول العالم الآن متداخلة سياسيا واقتصاديا وثقافيا واعلاميا؛ وبغير أن يبين المقصود بالنفوذ الأجنبى، وكل سفارة أو مقابلة لأجنبى قد تؤول على معنى النفوذ!! ثم يقرر أن الحاكم انعزل، فيخرج عليه الشعب وتعم الفتنة وينتشر الاضطراب وتقوم الحرب الأعظم فى كل بلاد العالم الإسلامى؟ ولمصلحة من يلوى عنق أفكار الدكتور السنهورى عن خلافة بائدة وتُنكر آراؤه عن خلافة المستقبل (التى قررت ابنته فى مقدمتها للترجمة أنها هى المؤتمر الإسلامى)، لينتهى الأمر بالتحريض على كل الحكام فى كل العالم الإسلامى. وتقويض كل الحكومات فى كل جنباته، والدعوة إلى الفوضوية والحروب الأهلية!!؟

ثم ماذا!؟

إن هذا الفكر لم يقدم فقه الخلافة، لكنه قدم فقه الإرهاب القادم للحقبة الآتية. وإلى ذلك نلفت نظر عقلاء المسلمين.